مِن وحْى الوافر

وقصائدُ أخرى

الحَسّانى حسن عبدالله

إهداء

إلى عــــارِفِيَّ، لِعرفـــانهمْ، هديـــةَ مُغتـــبِطٍ يَشـــكرُ
إلى مُنكريَّ الأُلَى أَظْهَروا، ومُستنكريَّ الأُلَى أَضْمَروا
هديـةَ مَـن لم يـزلْ آمـلًا بـرغْمِ الـدّياجيرِ أن يُبْصـروا
إلى هـؤلا وأُلاءِ سـواءً كتـابي، وحُيِّيـتَ يـا مُبْحـرُ
قَصَـدْنا الأَواذِيَّ هـدَّارةً، فمـا راعَنَـا ثَـبَجٌ يَهْـدِرُ
فإنْ كنتَ ذا قُدرةٍ فاصْحبَنَّا، وإلّا ففسِّحْ لمنْ يَقْدِرُ



البيانُ الثانى

لَـدَيْنا فى شـعرنا الحـديث مسـألة. ومطلـوبٌ أن نسـتجليَها، وأن نعكفَ على معالجتها، وألا نفارقَها حتى ننتهىَ فيها إلى قرار. سُميتْ قبْلَ سبعينَ عامًا بالشعر الحر، ثم توالت على تسميتِها استدراكاتٌ، لكنْ لا تزال التسميةُ الأولى هى الأشْيع، وإنْ شابَها بعضُ غموضٍ مرجعُه إلى معنى الحرية. عَرَضتُ لها فى بيانٍ أولٍ مستهلَّ "عفْتُ سكونَ النار" نُشر سنة 1972م راجيًا أن يكون محقِّقًا للمطلوب إذْ أَلَمَّ بجوانبِ المسألة فى مُجملها، لكنّ خمسين عامًا مرّتْ ولا يزال الغرضُ ينْأَى، مُنْبئًا أنّ هناك صعوبة. والصعوبةُ - عندى - راجعةٌ إلى طروءِ معنى "الحرية" على شعرِنا الحديث، وعلى حياتنا الحديثة كلها، وهو معنًى لم يكنْ قائمًا فى العقل الناطق بالعربية قديمًا، فى الشعر، أو نقده، أو فى الحياة على وجه العموم. ذلك أنه معنًى وَفَدَ إلينا مِن بعيد، ولم يكن ناشئًا فينا.

كانت "الحريةُ" عند العربى "فطرة". كانت هى "الأصل" الأصيلَ فى عالمه كلِّه. لذا لم يكن محتاجًا إلى أن يجعلَ منها موضوعًا للنظر فى معناها. ولذا برِئَ فكرُه من "اللتّ والعجن" الذى مَلأَ فكرَنا الحديث بشأن ذلك المعنى. قالت "هندٌ" مندهشةً لـمَّا أُمرت النساءُ بألا يزْنين "وهل تزنى "الحرةُ" يا رسولَ الله؟!". وأَدَلُّ من هذه الكلمة على استحكامِ معنى الحريةِ فى الوِجدان العربى كلمةُ عُمَر رضوان الله عليه

لعمرو بن العاصِ، رفيقِه فى الصُّحْبَةِ والجهادِ "متى استعبدتم الناسَ وقد وَلَدَتْهم أمهاتهم "أحرارًا" ؟! "الناسَ" – أىْ كلَّ الناس لا العربَ وحدهم. الأصلُ عند العربىّ ألا يُقْهَرَ أحدٌ. "وَلَدَتْهم أمهاتهم أحرارًا". وأرضُ اللهِ واسعة. ما على العربىّ إذا أراد أن يملأ رئتيْه من سَعَتِهَا إلا أن يَخرجَ مِن داره متأبطًا "شرَّهُ" ليجدَ نفسه فى فلاةٍ هو خِرِّيتُهَا الضاربُ فيها – بعبارة المتنبّى – بلا دليل، والصابرُ على حَرّها بلا لثام. هو حُرٌّ، وكلُّ عباد الله أحرارٌ، بحُكم خلقةِ ربهم، لا استنتاجًا من مقدِّماتٍ أو مجادلات. تلك طبيعتُه الحقُّ التى قد تصيبُها الحوادث أحيانًا بالوهن، لكنها لا تلبثُ أن تَلُمَّ الشَّعَثَ عائدةً إلى سابق عهدِها، إلى أصْل خلقتها.

وإذا استحضرنا فى أخلادنا أن الحرية فى وِجدان العربى أصْل، فيجبُ أن نذكر معها أن كلَّ شئون الحياةِ وكلَّ علومها قائمةٌ على "أصول". ولله دَرُّ ابن جنىٍّ لـمَّا رأى فى العربية "خصائصَ" هى فيها "أصولٌ" عُليا تتجاوزُ ما فيها مِن مقتضيات الرفْع والنصْب والجرِّ والجزم مما فُرِغَ منه فى أكثر الكتب المصنَّفَةِ فيه، ولـمَّا طَلَبَ لكتابه الشهير الصعبِ أن يكون مبنيًّا على "إثارة معادن المعانى، وتقرير حالِ الأوضاعِ والمبانى، وكيف سَرَتْ أحكامُها فى الأحناء والحواشى".[الخصائص: 33] الأحناءُ جمعُ حِنْو كعِلْم. كلمةٌ استعملها ابن جنى فى موضعٍ آخرَ [ص 13] وقال المحقق فى شرحها "أحناءُ الأمورِ أطرافُها ونواحيها، وأحناءُ الأصل اللغوى تصاريفه، فإنّ

كلَّ تصريفٍ طرفٌ له وناحيةٌ منه". ورحمَ اللهُ الشيخَ "محمد على النجّار".

هُدى ابن جنّى إلى علم بشأن طبيعة العربية رآه جديدًا. وإنه لكذلك. علمٌ ظل عاكفًا عليه زمنًا مُعْظِمًا له، معتقدًا فيه أنه مِن أشرفِ ما صُنّف فى علم العرب "وأَجْمعِه للأدلة على ما أُودعتْه هذه اللغةُ الشريفة من خصائص الحكمة، ونيطتْ به من علائقِ الإتقان والصنعة"، مقرّرًا أن البصريّين والكوفيّين نَكَلوا - مُعْظمُهم - عن الخوضِ فيه لما فيه من غرابةٍ وفذاذة.

وأكتفى هنا بملْحظ واحدٍ تاركًا التفصيل إلى غير هذا المقام. بدأ الرجلُ كتابَه بالفرق بين الكلام والقول ناظرًا فى "أحوال تصاريفهما واشتقاقهما مع تقلّب حروفهما - قال: فإن هذا موضعٌ (يعنى الاشتقاق مع التقلّب لا الاشتقاق المعهودَ المعلومَ فى علم الصرف) يتجاوزُ قدْر الاشتقاق، ويعلوه إلى ما فوقه". وأريدُك الآن أن توجّه أقصى انتباهِك إلى الجزء الأخير من العبارة، أعنى إلى قوله "يعْلوه إلى ما فوقه، قبْل أن تتأملَ ملاحظته. قال: "إن معنى "ق و ل" أين وُجدتْ، وكيف وقَعتْ، مِن تقدّم بعض حروفها على بعض، وتأخّره عنه، إنما هو الخفوفُ والحركةُ، وجهاتُ تراكيبها السّتّ مستعمَلةٌ كلُّها". [قال الشيخ النجّار: الخفوفُ مِن قولهم: خفّ القومُ إذا ارتحلوا مسرعين.]

الخفوفُ والحركة ! ذلك هو المعنى "الأعلى" الذى كان يجول فى خاطر العربى – واعيًا أو غير واعٍ – وهو يُقلّب المادةَ المعطاةَ له فى جهاتها السّتّ، فلا يترك منها جهةً إلا ولها حظّ من ذلك المعنى العام الذى يتنزّلُ من عليائه على اللسان باديًا على نحوٍ مّا فى كلّ أحناءِ المادة. وإذَنْ هذه لغةٌ كأنها نشأتْ فى السماء. فأىُّ عجبٍ هذا ؟! لكنْ يلزمنا هنا لُبْثةٌ نحاولُ فيها أن نكشفَ عن وجْه العجب، أو بعضِه على الأقل."ق و ل" تلك هى المادةُ المتاحة. فلننظرْ كيف عالجها العقل العربىّ قبل أن تستحيلَ إلى ألفاظٍ متنوعةٍ جاريةٍ على الألسنةِ فى انسجامٍ وسلاسة. وتفسيرُ هذا – عندى – هو الكلمةُ التى تُستعمل أحيانًا فى تفسير الشعر: الإلهام. أُلهم العربىُّ وسيلةً سهلة يقتدر بها على توليد ما لا حصر له من الألفاظ هى ما سمّاه بعضُ عظمائنا القدامى من علماء الصرف والنحو "الأوزان". الوزنُ هو القائد، هو الآمِر، وما على اللسان إلا أن يطيع. وهذا شىءٌ يشبه الحاصلَ عند نظْم الشعر. لا يستطيعُ الشاعرُ أن يمارس عملَه عندما تتهيّأُ له البواعثُ إلا إذا جاءه أمْرٌ من الوزن أو من "البحر"كما سماه الخليل. عندئذ فقط يمكنه أن يُحرّك ألفاظه تلك الحركةَ العجيبةَ التى نسميها "الشعرَ" مستعينًا بكل خصائصِ لغته التى نُفِذ إليها وكُشِف عنها ودُوّنتْ فى علوم.

أردتُ أن أُبِين لك عن وجه العجب فيما لحظه ابن جنى، لكنْ كأنى أحلتك إلى ما هو أعجب. ما تلك الأوزان؟ ما حقيقتُها؟ ما

طبيعتُها؟ وما نوعُ الحركة السارية فى كل وزن مميزةً له عما سواه، دالّةً على معنًى خاصٍّ يتوخّاه الناطق غيرَ مستطيعٍ العبارةَ عنه إلا بتلك الحركة التى كأنها لحنٌ وما هى باللحن؟ أعنى أنَّ الوزن هنا مغايرٌ للوزن العروضى، اتّحد اللفظان وافترق المصطلحان. مسألةٌ واضحٌ أنها صعبة. وواضحٌ أنها توشك أن تُدخلنا إلى ذلك العالم الغامض، كثيف الغموض، عالمِ الروح. تساءلتُ فى البيان الأول عن سرّ الوزن الشعرى، أو العروض، متوقفًا عند الخفيف:

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

قائلًا: ما الذى يُنشئ من هذا الترتيب لحنًا معجبًا. ؟ ثم أعلنتُ عجزى عن الجواب، وكأنى أعلن عجز كلِّ أحدٍ سواى. وهأنذا الآن أكرر التساؤل لكنْ بشأن أوزان الصرف لا أوزان العروض. وأقول لك جازمًا بأننا إذا طلبنا الجواب فى عالم الحسّ، أو الأعيان، أو الخارجات، فلن نجده. مطلوبٌ منك أن تناجىَ روحَك، لعلها تُفضى إليك بشىء.

دَعْ ذا إلى حين، ولنعدْ إلى شيخنا. أخبرنا أن أبا علىٍّ – أستاذَه – كان يرى ما رآه. قال: شاهدتُه غيرَ مرةٍ إذا أَشكلَ عليه الحرفُ، الفاءِ أو العين، أو اللام، استعان على علْمه بتقليب أصولِ المثال الذى ذلك الحرفُ فيه. قال: "فهذا أغربُ مأخذًا مما تقتضيه صناعة الاشتقاق، فإنّ ذلك إنما يُلتزمُ فيه شَرْجٌ واحد مِن تتالى الحروف مِن

غير تقليب لها ولا تحريف". قال المحقق: الشّرْجُ الضّرب. يقال هما شَرْج واحد، وعلى شرج واحد، أى ضربٍ واحد. وابن جنى يَعنى بصناعة الاشتقاق الاشتقاقَ الصرفى المعروف. وهو غير الاشتقاق "الأعلى" الذى لحظه وأُعجب به هو وشيخُه. وإليك فرقَ ما بينهما.

"ق.و.ل". ثلاثةُ أصولٍ لكلمة. لشىءٍ يكون. هى ما سماه علماء الصرف بالمادة. لكنها تبقى جامدةً خرساءَ لا تقوى على أن تصير "شيئًا كائنًا" إلا إذا أضيف إلى كلّ منها حركة. أخبرنا سيبويْهِ أن ذلك رأى الخليل. قال: قال الخليل "وإنما البناءُ على الساكن"، يعنى على المادة الأصلية، التى هى هنا "القاف" و"الواو" و "اللام". ألحقَ العربىُّ بكل منها فتحةً فنطقَ الأخرس: قَوَلَ. هذا باعتبار ما يفرضه الوزن، لكنّ العربىَّ باعتبار ما يناسبُ لسانَه كان له رأىٌ آخر. قَلَب الواو ألفًا لانفتاح ما قبْلها؛ وَجَد هذا أيسر، وجعلَه قانونًا فى كل واو أو ياءِ تتحرك وينفتحُ ما قبلها. فَعَلَ هذا - ربما واعيًا وربما غيرَ واعٍ - لكنّ الذى يعنينا هنا على كل حالٍ هو أننا بإزاء قضيّةٍ ليس فيها أدنى ريبٍ: إن هنا "نظامًا"، أى إن ما نطق به العربى لم يَنطق به سَبَهْللا، أو تأثرًا بشىء ما فى عالم الأعيان، وإنما جاء به استجابةً لتوجيه عُلْوىّ. ولعلّ فى هذا بعضَ ما يفسّر ثناء ابن جنّى على "هذه اللغة الشريفة"، وعلى ما أُودعتْه "من خصائص الحكمة". أىْ من الخصائص الدالّةِ على أن العرب أمةٌ حكيمة حباها اللهُ عقلًا قويًا

ووِجدانًا مرهفًا، وعلى أنها ذاتُ ذوق حسّاسٍ خبيرٍ بكل ما هو أنْسبُ وأجمل فى اجتماع الأصوات وتفاعلها.

هذه لمحةٌ عن الاشتقاق المعتاد، ذى الشَّرْج الواحد. أما الآخر الذى هو أعلى فهو أرْوع. "ق.و.ل". بَعْد أن فرغ العربىّ من تصريف هذه المادة حسَبَ المركوزِ فى وِجدانه من أوزانٍ لم يَقْنع. ورأَى فى المادة بابًا لا يزال مفتوحًا لمزيد من التصريف. خطر له – واعيًا أو غيرَ واعٍ – أن يقلّب المادة لينظرَ ماذا بعدُ، فجاءتْه "ق.ل.و"، ثم بدأ بالواو فجاءته "و.ق.ل"، ثم غيّر الترتيب فجاءته "و.ل.ق" ثم بدأ باللام فجاءته "ل.ق.و"، وغَيَّر الترتيبَ أخيرًا فجاءته "ل.و.ق". ثُم غلغلَ فى هذه الجهات السّتّ مشِيعًا فيها جميعًا معنى "الخفوف والسرعة". قال فى توجيه الأصل الأول، وهو القَوْلُ إن الفمَ واللسانَ يخفّان له ويَقلقان، وهو بضدّ السكوت الذى هو داعيةٌ إلى السكون. قال:"ألا ترى أن الابتداء لـمّا كان أخْذًا في القول لم يكن الحرفُ المبدوءُ به إلا متحركًا، ولـمّا كان الانتهاء أخْذًا في السكوت لم يكن الحرفُ الموقوفُ عليه إلا ساكنًا". وقال فى توجيه الأصل الثاني: منه القِلْوُ: حمارُ الوحش، وذلك لخفته وإسراعه. ومنه قولهم" قلوتُ البُسْر والسويق، وذلك لأن الشىء إذا قُلِيَ جفَّ وخفَّ، وكان أسرعَ إلى الحركة". وقال فى الثالث: منه الوَقْل [ويُقال فيه الوَقَلُ والوقِلُ كذلك] للوَعِل، وذلك لحركته. وقالوا: توقّل فى الجبل، إذا صَعَّد فيه، وذلك لا يكون إلا مع الحركة والاعتمال. وقال فى الرابع: قالوا: ولَق يلِق: إذا أسرع. وقال فى

الخامس: جاء فى الحديث "لا آكلُ من الطعام إلا ما لَوُّق لى، أى ما خُدم وأُعملت اليدُ فى تحريكه حتى يطمئن وتتضامّ جهاته. ومنه "اللُّوقةُ" للزبدة، وذلك لخفتها وإسراع حركتها". وقال فى السادس: منه اللُّقْوةُ للعُقاب، قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها.

ذلك هو الاشتقاقُ الأعلى، وواضحٌ به أن لديْنا هنا "نظامًا" آخرَ يُضافُ إلى النظام السابق. وواضحٌ بهما – وبغيرهما بطبيعة الحال – أن العربية مجموعة من "الأنظمة" التي يحقُّ لنا متابَعَةً لابن جنّى وصفُها بالعُلْوية. أىْ أنها شيءٌ يصعب جدًّا نسبتهُ إلى "الأرض" وما تعجُّ به من مصادفات، أو إلى ما سُمّى فى علم الطبيعة الحديث بالفوضى الخلّاقة. وإنما هى شىء يكاد يكون معجزة. شىءٌ يؤكّد صحةَ ما قرّره فلاسفةُ ما سُمّى فى تاريخ الفلسفة بالمذهب العقلىّ، الذي يُقال له بالإنجليزية rationalism فى مقابل ما يقالُ له فيها المذهب الحسّىّ empiricism، وهى الكلمةُ التى كأنّ المترجمين المحْدثين صعبتْ عليهم ترجمتُها فاقترح بعضُهم تعريبَها بـ"امبريقا" أو "امبريقية" وهو لفظ فيما أرى لا يسوغ، ولا حاجة إليه.

والخلاصةُ أن العربية لها على وجه العموم "نظام" ومطلوب إذَنْ من أهلها الناطقين بها أن ينسجموا مع هذا النظام. وهم يُسيئون إليها إن لم يفعلوا، ويسيئون – مِنْ ثَمَّ – إلى أنفسهم. هى نظامٌ فى صرفها، ونظامٌ فى نحوها، ونظام فى عروضها، ونظام فى أساليبها البلاغية. وهذه الأنظمةُ تأتلف جميعًا مُنشئةً روحًا واحدةً تسْرى في ذلك الجسد

البديع الذي يُسمى "العربية"، والذى لا يزال حيًّا، وسيبقى حيًّا بإذن الله، وفضله، وفضل مزاياها الذاتيةِ التى أعانتها على الحياة حِقبًا تِلْوَ حقبٍ برغم ما أصابها، ويصيبها، من سهام.

ثَبَتَ إذَنْ بتحليل ابن جنى لمسألة الاشتقاق أن العقل العربىّ مطبوعٌ على أن يكون مُشْرفًا موجِّهًا مهيمنًا، قادرًا على أن يَرى أبْعدَ كأنه زرقاءُ اليمامةِ، أو كأنه فارسٌ قائدٌ أريبٌ مغوارٌ محسن للكرّ والفرّ، بَيْنَا تراه هنا إذا به فى مثل لمحِ البصر هناك. اللغةُ أصوات لا تنبعثُ فى العربية اتفاقًا ولا تُصْدرها اللَّهَواتُ كيفما اتَّفق، وإنما هي دائمًا فى طاعة العقل. ومَنْ أرادها إذَنْ على غير هذا، وسنرى أنها أُريدت على غير هذا، إنما هو إمّا عابثٌ مهذارٌ أو ساعٍ عمدًا إلى شر.

قال قائلٌ منِ كلام مفترَضٍ أنه شعر:

التقتْ أشجارُنا بالرّجم فارتفعتْ على الصندوقِ شاهدةً:

هنالكَ نارُنا السّفلى مُغَذّاةً بأكبادِ النوارسِ

خطوةٌ ويصيرُ نحرٌ لَصْقَ جثتهِ

فماذا أدهش الروحَ

اتّفقْنا والضفائرُ مُثْقلاتٌ بالنتائجِ

هلْ رقابُ المبدعين رهينةٌ؟

تدنو إلى أحداقنا الكُوّاتُ عادلةً:

تُهرِّبُ للخلاءات القريبةِ نارَنا العُلْيا

وتنقبضُ انقباضَ الساترينَ

نوافذى مفتوحه.

وكتب كاتبٌ تعقيبًا على هذا الكلام يقول:

"أعترفُ أن هذا المقطع استَغْلق تمامًا على ملكةِ التخيّل والفهم عندى ... فالأسطرُ تبدو جُملًا منفصلةً منطَلِقَاتٍ في اتجاهاتٍ غيرِ متجاوبة، والصُّور كأنها حُمُرٌ مستنفِرةٌ ... فالمقطعُ كلُّه دالٌّ على ما يمكنُ أن تصلَ إليه الكتابةُ التلقائيةُ إذا تحوّلتْ إلى شطْح يتباعدُ كلَّ التباعدِ حتى عن هدفه الجمالىّ [قلتُ: كأن الجمالَ يمكنُ أن يكون هدفًا للشّطح!] – قال: "ونماذجُ هذا النوع من الشطح الجمالىّ تجسيدٌ لأقصى الطرفِ الذى تَغْدو فيه الحداثةُ مبتورةَ الصلةِ بالمنطق الداخلىّ (الشعورىِّ أو اللاشعورى) اللازمِ لهذا النوع من الكتابة، وإلّا انقطعتْ إمكاناتُ اتصاله بالقارئ".

وهنا يلزمُنا لُبْثةٌ أخرى لِلحْظ أمورٍ في هذا الاعتراف:

الأول أن حكمه بالاستغلاق منطوٍ على تناقض مع حكمه على النص (إذا افترضنا أنه نص) بأنه "جُمل". ذلك أن "الجملة" تعنى الفائدة، ولعل الأستاذ يذكرُ، وهو أحد أساتذة العربية قولَ ابنِ مالكٍ "كلامنا لفظٌ مفيدٌ..."، وما هو "مستغلِقٌ" غيرُ مفيد، وكأنه – بدون أن يفطن– جمَع فى صفة النصّ أنه غيرُ مفيد ومفيدٌ، وهذا هو الجمعُ بين النقيضيْن المقررُ فى علم المنطق أنه ممتنع. وتناقُض كذلك إثباتُه صورًا ليست صورًا لأنها حُمُرٌ مستنفِرة.

والثانى أن ما سماه بالكتابة "التلقائية" إنما هو تجويزٌ أو تشريعٌ للكلام الفارغ. والأصلُ فى الكتابة أنها قيدٌ أو ضبْطٌ للفكر.

والثالثُ: أنه جعَلَ ما سمّاه بالشطح الجمالى مذهبًا من مذاهب ما سمّاه بالحداثة. وكأنه مقضىٌّ على أهل هذا العصر الحديث، وأهلِ كل عصر يَحْدُث بعده أن يكونوا من الشاطحين، والحجةُ التى يقيمها الدّجلُ أنهم يبتغون الجمالَ بشطحهم!

دعانى إلى التوقف عند هذا العيب فى هذا المقطع دلالتُه على مرض فشا في الشعر الحديث كله، وخصوصًا فى نصف القرن الأخير، ولولا هذا ما باليتُ، ليس همِّى إلى هذا النص أو ذاك، لكنَّ همِّى إلى الحالة العقلية أو النفسية أو الروحية العامة، هذه الحالة تتجاوزُ الأفراد من حيث هم أفراد لتشتملَ الوجود القومي كلَّه، وهذا هو الخطير؛ ألسنا أبناء أمة؟ ألستُ أنا وأنت جزءًا من كلٍّ مفترض أن يكون

قائمًا، وأن يكون وجودًا متماسكًا قويًّا عزيزًا؟ تلك هى المسألةُ التى قلتُ مستهَلَّ هذا البيانِ الثانى أنها هى التى تعنينى، لا تقصيرٌ هنا وتقصيرٌ هناك من شاعر، أو غفلةٌ هنا أو غفلةٌ هناك من كاتب أو ناقد، هذا الغموضُ المتكاثف في الفكر الحديث كله لا فى الشعر الحر وحده صار كأنه شىءٌ مُرادٌ، لا شىءٌ جاءتنا به مصادفةٌ عمياء أو تفاعلات اجتماعيةٌ ماديةٌ خالصة. ولك أن تقول إذَنْ إنه "ظاهرةٌ" سياسيةٌ لا ظاهرةٌ فنية.

ظهرَ ما يشبهُ هذا النوعَ من العيب فى الحياة العربية قديمًا، زمنَ البعثة النبوية المباركة، لمّا خطرَ لنبيّ كذّاب إمكانَ أن يَروجَ كذبُه عند عربِ زمانه، وعُرِض كلامه على أبى بكرٍ رضوانُ الله عليه فردّ المكرَ ردًّا حاسمًا قاطعًا بكلمة واحدة؛ قال لهم: ‘ويحكم! أين يُذهبُ بكم، هذا كلامٌ لا يخرجُ مِن إلّ.’ قلتُ للإلّ معانٍ متعددة، لكنّ السياق دالٌّ دلالةً واضحةً على أن المعنى الذى يستقيمُ معه هو "العقل". وكأن أبا بكرٍ أراد أن يقول للعرب: إن القرآن على النقيض. أَعملوا عقولكم تعرفوه. قلتُ: وكانوا مُهيئين للتجاوب مع هذا المطلب لأنهم كانوا أهلَ شِعر، أعنى أهلَ عقل. للشعر عندهم شرطٌ أولٌ، أو حدٌّ أولٌ، أو عمودٌ أولٌ هو العقل. وذلك بيِّن في اللغة كلّها، نثرها وشعرها وقرآنها.

ولا يخلو زمن – بطبيعة الحال، أى بحكمِ ما طُبع الناسُ عليه – مِن قلة العقل. لكنّ هذه الحقيقةَ العامةَ لا ينبغى أن تُطمئنَنا، لأن

الذى نحن فيه فى هذا الزمن مختلف. إنه ركونٌ إلى التسيّب واستنامة له، حتى لكأن الناسَ فى خَدَر. وإلّا فكيف جاز للكتابة 'التلقائية' أن تكون "مذهبًا" عند أناس مفترضٍ أنهم عقلاء؟!

والسؤالُ الصعبُ الآن: ما الذى هَيّأ لهذا العيب المدمِّر أن يوجَد، وأن يتمكن؟ الجوابُ عندى، وعند كل ناظر متأمّل فيما سبق، لا مناص من أن يكون منوطًا بنشأة تلك الطريقة التى جدَّتْ على نظم الشعر فعَدَلتْ به عن البيت الذى له أولٌ معلوم وآخِرٌ معلوم إلى "تفعيلة" تنطلق بلا رَسَنٍ ثم تمضي إلى حيثُ تَدفع بها ريحُ المصادفة وإغراءاتُ الأصوات أو أجراسِ الأحرفِ، ثم لا تكون النتيجةُ بعد هذا التفلّت إلا ضَعفَ القدرة على الضبطِ وكبحِ الجماح والقيادةِ الرشيدةِ للفكر الشعرىّ. لا مناصَ، ويندرُ جدًّا أن تجِدَ من يفلحُ فى النجاة من هذا الوبال. ثم يقع هذا النِثَارُ بين يدىْ الناقد فيقلّبه ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال راجيًا أن يحصل على معنًى فلا يجدُ إلا أوشالًا، ويُضطر عندما تعجز "ملكة" التخيّل والفهم عنده عن الاستيعاب إلى "الاعتراف" بالعيب متظاهرًا بإيثار الإنصاف.

ما الذى شقّ اللغةَ – وهى فى الأصل شىء واحد بطبيعة الحال – شِقّيْن، فصارت إلى نثرٍ وشعر؟ الجوابُ القديم والذى سيظل صحيحًا عندنا على الأقل هو "الوزنُ والقافية". بهما وقعت الفُرقة البيّنة. وهذا واضح. أمّا غيرُ الواضح فهو كيف كان ما كان؟ فى حوالىْ ألف وثلاثمئةِ صفحةٍ حاول السودانيّ عبدالله الطيب أن يجيب،

لكنه – وأسفا – ضلّ، لأنه رفض القول بالفطرة وانحاز انحيازًا كاملًا إلى تفسير حسيّ ماديّ. وهو رجل ذو علم واسع باللغة، وصاحب شعر كذلك، فهو لهذا مستحق للاهتمام وفحْص ما يزعم، وقد أسرف جدًّا في ذهابه إلى أن العروض العربى وافد من اليونان، مستندًا إلى رأى خاطئ أن العروضيْن ينتميان إلى ضَرْب واحد يُوصَف فى علم اللغة بالكمّى. وقد رددتُ عليه في مقامٍ آخرَ، فلا حاجة إلى تكرار القول.

لكن الذى يعنينا من ذكره هنا ما نحن فيه من النظر في مسألة الشعر الحر، وعلاقتها بالعقل العربى من جهة، وبالسياسة العربية من جهة أخرى، وإن كانت الجهتان عندي جهةً واحدة، أو كأنها كذلك.

السؤالُ الصعبُ، وما أكثر الأسئلةَ الصعبة، مِن أين جاءنا الوزن والقافية؟ وإن اعتمدنا القول بالفطرة، فما حقيقة الفطرة؟ وكيف أمكن لها أن تئول إلى لغة ذاتِ قَوام بديعٍ قائمٍ على "أنظمة" متعددة – كما قلنا من قبل – اتّحدت فى "نظامٍ" شاملٍ سرى في كل جوانبها وهيّأ لها أن تكون مُلهِمة للعقل العربى إلهاماتٍ متنوعةً ذاتَ نتائجَ مشهودٍ لها بالعظمة حتى من أعداء العربية؟ واجهتُ المسألة في البيان الأول، مستشهدًا بالخفيف، أنه لحن فذّ. لم أقصد الخفيف من حيث هو، بل قصدت كل بحر يشبهُه من البحور المتغايرة التفاعيل كالطويل أو البسيط على سبيل المثال. ظنًّا منى أن تفسيرَ الجمال الموسيقىّ مع التغاير أصعبُ منه مع التماثل، لظهور التكرار مع الأخير وعدم

ظهوره مع الأول. أَثَرْتُ المسألةَ وتركتُها بلا حل، معتذرًا بأنها "رُوحية"، وأن الرُّوح من أمر الخالق. ومرّت أعوام وأعوام والمسألةُ باقيةٌ على غموضها. ومع اعترافى بأنها لا تزال غامضةً وجدتُ عندى بعض الضوء.

هنا يلزمنا وقفةٌ مع مصطلحٍ مألوفٍ فى علم الموسيقا غيرِ مألوفٍ فى علم العروض: الإيقاع.

جاء فى "اللسان": "الإيقاعُ مِن إيقاع اللحن والغناء. وهو أن يُوقِعَ الألحانَ ويبيّنَها. وسَمَّى الخليل رحمه الله كتابًا من كتبه في ذلك المعنى "كتابَ الإيقاع". واضح من هذا أن الكلمة مستعملةٌ في لغتنا من قديم. لكنْ ليس بين أيدينا كتاب الخليل فى العروض، ولا كتابه في الإيقاع. وعلينا إذَنْ أن نُعمل الاستنتاجَ بقَدْر الإمكان لنعرف شيئًا يُطمأنّ إليه عن طبيعة الإيقاع. تدلّنا قواعد الاشتقاق فى التصريف العربى على أن الكلمة مصدر 'أوْقعَ' أو 'أفْعلَ' الثلاثى المزيد بالهمزة. أمّا المجرّد فهو "وَقَع" الذى يجئُ مباشرةً من المادة الأصلية الثلاثية، الواو والقاف والعين، والذى مصدرُه 'وَقْع'، والوقعُ، لغةً، هو الأثَرُ الذى يُحْدثه الصوت مطلقًا وينقُله العَصَبُ إلى الوِجدان. وهذا لا يَعنينا هنا، وليس يعنينا كذلك الصوت اللغوى لأنه مبحثٌ متعلق بعلم الأصوات. إنما الذى يعنينا الآن فهو ما يمكن أن يُسمى "الصوتَ الشعرى". أى الصوت الذى هو أول الشعر. هذا الصوت الشعرىّ منصوصٌ عليه في كل كتب العروض. يقول التبريزىُّ مثلًا:

الشعرُ كلُّه مركّبٌ من سبب ووتِد وفاصلة". هذه هى أجزاءُ الشعر الأوائل. وكلٌّ منها مركّبٌ من سكوناتٍ وحركاتٍ متضامّةٍ فى كتلة صوتية واحدة. هذه الكتلة وَصَفَهَا "الشريف الحسينىّ" – رحمةُ الله عليه – وصفًا دقيقًا بقوله إنها لا "تتبعّض"، يعنى لا تتجزّأ، وإنْ كانت مركّبة من أجزاء، يعنى أنّ تجزُّءَها أو أجزاءَها تَعنى الناظر فى علم الأصوات ولا تعنى الناظرَ فى علم الشعر، الذى هو العروضُ فيما نحن بصدده. هذه الكينونةُ، أو الكينوناتُ، لكلّ منها وقعٌ فى الأذن العربية، وربما في غيرها أيضًا أحيانًا. فإذا طلبْنا صفةً لهذا الوَقْع مستقلًّا مجرّدًا فماذا نجد؟ أعنى عندما 'نعلو' – ولنذكرْ ما جاء فى 'ابن جنى' عن 'العلوّ' فيما سبق – متجاوزين الدلالةَ اللغوية للألفاظ الممثِّلة لتلك الأجزاءِ الأوائل. نجدُ السبب الخفيف كأنه نقرةٌ واحدة، 'تَمْ' – لكنّ لها تميّزَها مع كونها واحدةَ – ونجد الوتِد المجموع نقرتين على نحو خاص 'تَتَمْ'، ثم نجد الفاصلةَ الصغيرةَ ثلاثَ نقَراتٍ على نحو خاص 'تتتمْ'. وكأننا نصغى حنيئذٍ إلى 'موسيقا' خالصة. لكنّ هذه الموسيقا التى كأنها خالصةٌ ليست هى الشعر. إن الشعر مختلفٌ جدًّا. وإنما هذه الأجزاء الأوائلُ مقدّمة ليس إلا له، أو تمهيدٌ يشبه فى وظيفته وظيفةَ الحرف المتحرك – مجتمِع السكون والحركة – فى كونه – كما قال صاحب الخزرجية – أولَ النطق. وإنما هى الشرطُ الأول للشعر. ولما كانت اللغةُ برمّتها هي ما بعد الحرف المتحرك، فكذلك الشعرُ برمّته هو ما بعد السبب والوتِد والفاصلة.

هل آنَ الآنَ بعد هذا القدْر من التفصيلِ أوانُ تعريفِ الإيقاع، أعنى الإيقاع في الشعر العربى؟ فلنحاول.

"الإيقاعُ أثرٌ سائغٌ واقعٌ فى الوِجدان تحدثه كتلةٌ صوتيةٌ منطوقةٌ، ذاتُ مدىً يضيق حينًا حتى يكون بقدْر السبب الخفيف، ويتسع حينًا حتى يكون بقدْر بيتٍ من "الطويل"، أو مما يضارعُه طولًا". لكنّ هذا لا يكفى لأنه يُغْفل "القافية" وفِعْلُها في اللحن أو الإيقاع لا يقلّ خطرًا عن فعل الوزن. ثم إنه يُغْفل كذلك الأثر الحاث من توالى الأبيات المقفّاة منشئةً بنيةً ذاتَ وقْع إجمالى مضافٍ عند نهاية المطاف إلى وقْع كل بيتٍ على حِدَة.

وصدق الذي قال"الشعر صعب"! ومن صعوبته أن تعريفنا قد يَرِدُ عليه استدراك. فممّا يُؤخذ منه أن النثر أيضًا قد يكون له ضَرْب من الإيقاع، إذْ إن الأجزاءَ الأوائلَ داخلةٌ بالضرورة فيه وكلّ منها إيقاع. والردُّ أنه لا بأس بهذا. إن هذا الضرب من الإيقاع النثرى إحدى مزايا العربية، لكنه لا يرقى إلى الإيقاع الشعرى، لأن الإيقاع لا يكون شعرًا إلا إذا آلت الأجزاء إلى "نمط"، أى إلى رسم يَمْثُلُ فى المخيّلة قادرٍ على أن يهزّ النفس هزًّا يحسّه كلُّ ذى حسّ. وأقصى ما يمكن أن تئول إليه الأجزاءِ الأوائل أن تتركّب بحيث تنشأ مِن تركّبها الأجزاء الثوانى، التى هى بمصطلح العروضيين "التفاعيل"، والتفعيلةُ مستقلّةً إيقاعٌ، هذا أمرٌ لا شك فيه، يمكن تَبيُّنُه بالنقر، لكنها كذلك لا تقْوى على أن تئول إلى نمطٍ ما بقيتْ عُرضةً لفوضى النثر. فى النثر

يمكنك أن تجمع بين "فعولن" و"مستفعلن" مثلًا، لكن الأنماط الشعرية تأبَى هذا الجمع. والأنماطُ الشعرية هي المنصوصُ عليها فى علم العروض، المسمّاةُ بالبحور، والقابلةُ لأن يُضاف إليها غيرُها بالاختراع.

والسؤالُ الآن ما معيار النمطية، بمَ نُثْبت نمطًا ونَنفى آخر؟ والجوابُ الذي أوقِن أنه لا جواب غيرُه، والذى قد يرى العقل التحليلىّ أو الرياضىّ أنه غير كافٍ، هو "الذوق" أو "الفطرة" التي ردّها عبدالله الطيب ردًّا لم يكن يليق به، مُؤْثِرًا عليها الزعمَ بأن العرب استعاروا أنماطهم أو بحورهم مِن يونان.

وبقىَ شىءٌ فى مسألة الإيقاع مهم جدًّا. يقالُ إن من خصائص الإيقاع التكرار. والعربية لا تأبَى هذا القول. إن الناظرَ المتأملَ فى مشتقّات مادة "وقع" يمكنه أن يلحظ فى يُسْر صفة التكرار. جاء فى "اللسان": يقالُ سمعتُ وقع المطر، وهو شدةُ ضرْبه الأرضَ إذا وَبَل. ويقال سمعتُ لحوافرِ الدوابّ وقعًا ووقوعًا. ووقيعةُ الطائرِ، وموقَعته – بفتح القاف – موضعُ وقوعه الذى يقع عليه ويعتادُ الطائرُ إتيانَه. والتوقّعُ تنَظّرُ الأمر ..." وهذا المعنى المستنبَط استنباطًا فى العربية منصوصٌ عليه نصًّا فى غيرها. جاء فى معجم 'وبستر' مثلًا فى تعريفِ الإيقاع [راجعْ مادة rhythm] إنه 'تعاقبٌ متكررٌ منتظم ...'

ما الذى يتكرر، وكيف؟ النظرةُ العجْلَى لرسوم الأبحر في كتب عروضنا توحى بأن هناك شيئًا مّا يتكرّر. فلننظرْ - على سبيل المثال - فى محاولة الجواب في البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستتفلعن فاعلن

هذه صورته في الدائرة. أىْ هذه صورتُه الأصلية. وواضحٌ من الرسم تكررُ "مستفعلن" وتكررُ 'فاعلن'. وإذا صحّ أن التكرار من خصائص الإيقاع فإن هذا الرسم الذى بين أيدينا مُعبّر عن إيقاع لا شك فيه، لكن هذا اليقينَ ينهارُ بالنظرة المتأمّلةِ فى تاريخ الشعر العربىّ كلّه. إنّا لا نجدُ فى ذلك التاريخ العريق بيتًا واحدًا يمكن أن يَصْدقَ عليه هذا الرسم فى انتظامه الحسابىّ الدقيق(1). أمّا الإيقاعُ الحقُّ فصورتُه الحقُّ هى ما يلى:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعِلنْ

هذه هى الصورة التى اعتمدها الشعراءُ العرب طَوالَ الحقب المتوالية منذ الجاهلية حتى اليوم. وهى شاهدةٌ على انهيار التكرار بسقوط الثانى الساكن من التفعيلة الأخيرة، أو ما يُعرف عند أهل

---

(1) نبهنى أحمد مهران، أحدُ أصحابنا، إلى أن عند الأعشى بيتًا من البسيط الأصلىّ هو قوله:

ولا تكونى كمن لا يرتجى أوبةً   لذى اغترابٍ ولا يرجو له رِجعا

العروض بالخبن. والسؤالُ الآن الذى يصعب جدًّا جوابه هو ما الذى فَعَلَه ذلك التغييرُ الهيّن جدًّا فى هذا الرّتلِ الصوتىّ فقَلَبَه من "ثقيل" جدًّا إلى "سلِسٍ" جدًّا؟!

أليس هذا غريبًا؟! والأغربُ أن التكرارَ يغيبُ أحيانًا غيابًا باتًّا ولا يغيبُ الإيقاع أو "الوزن". خُذْ مثلًا مُخلّع البسيط "مستفعلن فاعلن فعولن". فهذه كينونةٌ عروضيةٌ سائغةٌ لا ينبو عنها الذوق. ومع ذلك فهى جماعُ ثلاثِ تفعيلات كلٌّ منها قائمٌ برأسه. فإذا قلنا إن 'الكامل' مثلًا تنشأُ موسيقاه من تكرار "متفاعلن" فمِمَّ تنشأُ الموسيقا فى 'المخلّع' وقد تخلّع. كيف صار كينونةً واحدةً وهو كما يدلُّنا الرسمُ كأنه يسير على هواه بلا رسن؟!

ومما يَلحق بالتكرار فى مسألة الإيقاع ما يُسمّى بالتناسب، أو التجاوب. رأى بعض النّظّار المحْدثين فى العروض أنه إحدى خصائص الإيقاع. مثال هذا زعْمُهم أن إيقاع 'الطويل' مثلًا قائمٌ على قسمته إلى:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

أو إلى التطابق بين التفعيلة الأولى والثالثة، وبين الثانية والرابعة. أو بين التفعيلتين الأولى والثانية مجتمعتيْن، والثالثة والرابعة مجتمعتيْن.

أو إلى كون الوتِد المجموع قائمًا أولَ كلّ تفعيلة.

يُبطل الزعميْن الأولَ والثانىَ أن الطويل، كما يدلّنا تاريخ الشعر العربىّ كلّه عروضُه مقبوضةٌ دائمًا. أى أنّ صورتَه فى الاستعمال – ولا عبرةَ بالتصريع أولَ القصيدة إنْ وُجد:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

أى لا تطابق بين الثانيةِ والرابعة.

ويُبطل الزعمَ الثالثَ أن القسمة العروضية المقرّرة للطويل ممكنةٌ لا واجبةٌ، أعنى يمكن أن ينقسم البحر قسمةً أخرى مخالفةً لكنها صحيحة، فيُرسم البحرُ كما يلى:

فعولن فعولن فاعلاتن مفاعلن

وفى هذا الرسم الصحيح بلا شك يتخلّف الوتِد فى الثالثة ليحلَّ محلَّه سببٌ خفيفٌ. وإنّك لَرَائِيهِ متحقّقًا فى مطْلع جيمية ابن الرومى:

أمامَكَ – فانظرْ أىَّ نَهْجَيْكَ تَنْهَجُ   طريقانِ شتَّى، مستقيمٌ وأَعْوَجُ

وتقطيعه على الرسم غير المعهود:

أمامكَ فانظرْ	أىَّ نهجَيْ	كتنهجُ	طريقانشتَّى	مستقيمْ	وأَعْوجُو
فعولُ فعولن	فاعلاتن	مفاعلن	فعولن فعولن	فاعلاتن	مفاعلن

وإذَنْ نَخْلُصُ من هذا القدْر من النظر فى المسألة إلى أن الإيقاعَ فى الشعر العربىّ لا عَلاقةَ له بالتكرار ولا بالتناسب. وإنما هو شىء يَصْدُقُ عليه ما ارتآه ابن رشيق في مُفتتح "العمدة". قال:

"ليس للجودة في الشعر صفةٌ، وإنما هى شىءٌ يقع فى النفس". وأقول محاكيًا:

ليس للإيقاع في الشعر صفةٌ، إنما هو شىءٌ يقع فى النفس. ولن يستطيع تحليلٌ مهما دقّ أن يكشفَ عنه إلا القشورَ. ولا تَعْجَبْ؛ مُلْك الله كلُّه عَجب. أمّا إذا راعكَ ما قلتُ فأنصحكَ أن ترجعَ إلى كتاب "فلسفة الرياضة" لمحمد ثابت الفندى، وهو أستاذ متخصّص فى علم الرياضة والفلسفة. عُنى – ضِمْنَ ما عُنى به من مسائلَ رياضية، بدرْس نشأة 'العدد' فى العقل، وبعد أن طوَّف مع آراء العلماء في الموضوع عَرَض لرأى رياضىّ ألمانىّ كبير هو "كرونكر" لم يَرْضَ عنه. قال كرونكر إن العدد تنزّل إلى عقل الإنسان من عند الله. قال الفندى هذا لاهوت. وبهذا نُفِى الرياضىّ الكبير من عالم الرياضة كأنه ليس رياضيًّا وليس كبيرًا. أجدنى موقنًا بأن الألمانىّ لم يقل ما قال إلا بعد نظر فى كلّ الوجوه المحتملة للتفسير ورأَى فى كلٍّ منها شيئًا من النقص أو العيب دفعه دفعًا إلى ذكر الله عز وجل.

لا أقولُ هذا ظنًّا، بلْ أقولُه يقينًا، ودليلى كتابُ "الفندى" نفسُه. أخبرنا فى ختام كتابه أن الفرنسىَّ 'بوانكاريه' حَكم بأنه لا

سبيلَ إلى التوفيق بين الآراء المتصارعة فى ميدان علم الرياضة بشأن مسائلها العويصة، لأنه لا سبيل إلى التوفيق بين أصحاب المذهب العقلى وأصحاب المذهب الحسّىّ [راجعْ ما سبق بشأنهما]، وبوانكاريه الذى قرّر هذا أحدُ كبار علماء الرياضة والطبيعة فى العالم؛ وَصَفه كاتب سيرة "أينشتين" بالعظيم بوانكاريه، مع أنه ظل حتى مات معارضًا نسبيّةَ أينشتين، وهو إذَنْ رجلٌ لا يُستهان برأيه، لكنْ يبدو أن الرياضىَّ المصرىَّ لم يُولِهِ ما يستحق من اهتمام، ولولا هذا ما استخفّ بما قاله كرونكر، لأن ما قاله الألمانىّ والفرنسىُّ شَرْجٌ وَاحِدٌ – إن جاز لنا استعمالُ كلمة ابن جنىّ هنا. أى أنهما يَصْدران عن رؤيةٍ ثاقبةٍ واحدةٍ؛ المادةُ موجودةٌ، هذا مُسَلَّم، وكلّ ما هو مادىّ يقْبلُ التحليلَ المادىَّ، أو الحسّىَّ، إلى أجزائه الأوائل، لكنْ ما العملُ إذا كان ما نحن بصدَده غيرَ مادى، حينئذٍ يُخْفِقُ التحليل فى الوصول إلى جَدْوى.

هذا هو ما نحن فيه فيما يتعلق بقضايا الشعر العربى، واللغة العربية على وجه العموم. هناك ما يجرى على الألسنة، وهو مادة، لهذا يَقْبل التحليل وقد حُلّل تحليلاتٍ دقيقةً كلَّ الدقة عبّرتْ عنها علومُ العربية أبْلغَ تعبير، لكن العلماءَ العربَ، فى رؤية ثاقبةٍ، أبصروا الشاطئ الآخر وأدخلوه فى اعتبارهم وهم ينظرون إلى المادة ويُجيلون فيها حِسَّهم، ساروا معها حتى أسلمتهم إلى الأصل الأصيل ووَلَجتْ بهم عالم الروح، فانكشف لهم مِن أمر اللغة والشعر ما لم يكن منكشفًا

إلا بتلك الرؤى الثواقب فى أصول الكلِم، وأصول النحو، وأصول العروض، وأصول البلاغة.

رأى العقلُ العربىّ، أو العلمُ العربىّ، أن المادةَ لا غنى عنها، أو عن تحليلها فى محاولة فهم العالم، وحلّلها، وكان من نتائج التحليل أو التحليلات أن عَرفت الثقافة العربية نهضة فى علوم المادة، كالطبيعة والكيمياء والأحياء والطب، وكذلك فى علم الرياضة والفلك، وهى النهضة التى يُقر علماءُ الغرب بأنهم أفادوا منها، وأنها كان لها الفضل فى استنقاذ العالم الغربى من ضلالات العصور الوسطى، أو عصور الظلام كما سَمّوها.

وكان من علوم المادة عند العرب كذلك "علم الأصوات اللغوية"، الذى أعملوا فيه التحليل وبلغوا فى دقته أن وصلوا إلى نتائج ومعرفة لم يصلْ إليها الغربيُّون إلا عن طريق المعامل. أَعْمَلَ العربُ الحِسَّ، لكنهم أعملوا معه العقل، وبهذا رأَوا فى العربية أمورًا صحيحةً لم يستطعْ غيرهم رؤيتها، وتحاشوْا أخطاءً لا تزال قائمة فى أذهان المستشرقين لا تريد أن تزول. مِن ذلك أن الألمانى 'فايل' مُصِرٌ على أن الوتِد المجموع جزآن، أولهما ما يُسمى بالمقطع القصير والثانى بالمقطع الطويل، وهو غلطٌ شنيعٌ وجهلٌ بطبيعة العربية وطبيعة الشعر العربى مُطْبِقٌ. على حين أن عروضيًّا عربيًّا فذًّا هو الشريف الحسينى نصّ على أن الأجزاء الأوائل للشعر العربى، أى السبب والوتِد

والفاصلة، لا تتبعّض، منذ زمان بعيد. أىْ أن كلا منها وَحدة قائمة برأسها برغم تركُّبها من أجزاء.[راجع: العيون الغامزة]

ليس "فايل" وحده هو المصر، بل يُصر معه المستشرقون جميعًا، قدماءَ ومحدثين. بيْن يدىّ الآن كتاب مترجم عنوانه "التراث اللغوى العربى"، لثلاثة من المستشرقين المحدثين، شاهدٌ على تخبطهم وحيرتهم بشأن الموضوع. عالجوا العلم فى الفصل السابع مصرّحين فى بدايته بأنهم يحاولون "تفهّم" ما سمّوه بنظرية العروض العربىّ، مقرّرين أنه يبدو 'مُربِكا'، واعتلُّوا بأنه لم يلجأ إلى "مفهوم المقطع" و"لم يستعنْ بمفهوم النبر الوزنىّ (الارتكاز). وقد أَزعج هذا الأمرُ كثيرًا من الناس". ولـمَّا أرادوا أن يتخلّصوا من 'الإزعاج' قطّعوا "فاعلاتن" - مثلًا - إلى "فا/عِ/لا/تُنْ بدلًا من فا/علا/تُنْ"، وهو تقطيع مفسد للوقع أو الإيقاع أو الوزن أو البحر إفسادًا بيّنًا لكل ذى ذوق، وهو مضيّع - مِن ثَمَّ - للجمال الذى هو غايةُ الشعر. أمَّا مسألة "النبر" فقد أشبعناها بحثًا فى غير هذا المقام.

يجبُ أن يكون المحلّل على ذُكْر دائمًا من أنه يحللُ أصواتًا منطوقةً فى "شعر" لا أصواتًا مجردة. الأصواتُ المجردةُ تأتينا بصفات للحروف، لكنّ الذى نحن فى طلَبه صفاتُ العناصر المؤسسة للشعر. قال أبو العلاء "نبِّئانى"، فما الذى نطقَ به فى بيته؟ وما الذى يسمعه من يقعُ فى سمْعه ذلك البيت؟ /نَبْ/ هذا هو القسمُ الأول الذى يفرض نفسه فرضًا على المتذوّق - محلِّلًا أو غيرَ محلِّل - وهذا القسم الأول

مستحيلٌ أن يتبعّض، فينفصلَ الحرفُ المتحرك عن الحرف الساكن، لا فى شعر ولا فى غير شعر. ثم إذا تقدّمتَ وجدت نفسك مجبرًا على النطق بالوتِد المجموع مجموعًا /بئا/ أى كتلةً صوتيةً واحدة، يصدقُ عليها ما صدَق على السبب الخفيف الأول، أى لا تَبَعُّض. وإذا زعم المستشرقُ أن الذى جاء به ليس خطأً لأنه مقررّ فى علم "الأصوات" قيل له: المقرّرُ فى علم الأصوات "عام"، ونحن عند النظر فى الشعر وشأنِه فى طلَب "الخاص". ولا يستقيم النظرُ إذا أُهمل الفرقُ بين العموم والخصوص. بلْ قد يؤدى ذلك الإهمال إلى ضلالاتٍ إحداها ما وقَع فيه "فايل" ومَن لفّ لفَّه من العَرَب المحدثين. نحن فى الشعر نبغى إدراكَ "اللحن" لا إدراكَ صفةِ الحرف. ولأن الشعر غيرُ النثر وَجَبَ اختلاف القسمتيْن. القسمة "الأصواتية"عامة، أما القسمة "الشعرية" فأمْرٌ يخصّ تلك اللغة الخاصة التى نسميها لغة الشعر، والتى يميّزها فى كل لغات الأرض أنها موزونة، أى قائمة على ضرْب مّا من ضروب الإيقاع، أساسُه الأولُ فى العربية السببُ والوتِد والفاصلة، وليس ما سمّاه علماءُ الغرب، وعلماءُ الأصوات، بالمقاطع القصيرة والطويلة. قلتُ "فى العربية"، أى فى اللغة كلها، شعرًا ونثرًا، لا فى لغة الشعر فقط. وهذا أحدُ أسرار العربية، بل ربما كان سرَّها الأعظم، أو قانونها الأول، الذى هو – عندى – لا تفسير له إلا أنه صيغ فى "السماء" لا فى 'الأرض'، أنه –كما قلتُ فى البيان الأول – من أمْر الخالق. أمَر اللهُ العربى بأن ينطق هكذا: أن يجمع بين السكون والحركة فيما سمى بالحرف المتحرك. ثم أن يجمع بين الحرف المتحرك والحرف

الساكن فيما سمى بالسبب الخفيف. ثم أن يجمع بيْن حرفين متحركين وثالث ساكنٍ فيما سُمّى بالوتد المجموع، ثم أن يجمع بين ثلاثة أحرف متحركةٍ ورابعٍ ساكن فيما سُمّى بالفاصلة الصّغرى. وهكذا سائرُ الأوامر التى أنتجت أجزاءَ اللغة الأولى، والتى حَصَرَها علم العروض فى ستة. وأنت الآن مدعوٌّ لأن ترفع عنك غِشاوةَ الإلْفِ وتتأملَ هذه الإلزامات، لتوقن باستحالة أن تكون ناشئة من "الحِسّ" أو مِن فعل مصادفة مّا، ولتوقن أيضًا أن مسألة "الشعر الحر" أبعدُ من أن تكون مجردَ دعوى "أدبية" أو "نقدية"، مما اعْتيد تسميته بقضايا النقد والأدب. إنها مسألة اللغة العربية فى الصميم، شعرها ونثرها. وعليك أن تذكرَ كلمة "أبى على" لصاحبه "ابن جنى" بشأن مسألة التوقيف والوضْع لمّا قال له قاطعًا إن العربية "من عند الله"، وأن تضيفها إلى رأى "كرونكر" و "بوانكايه" حديثًا، وإلى رأى "إفلاطون" قديمًا. وعليك أن توقن أخيرًا بعد النظر المتأمل فى هذا كله أن لغتنا وُجدتْ لتبقَى، وأن شعرها الذى صابَر الزمانَ ألفىْ عام على الأقل إنما هو كذلك وُجدَ ليبقى. وأن شيوع الشعر الحر فى العالم العربى المعاصر إنما هو غاشيةٌ فى طريقها حتمًا إلى الزوال. قلتُ إننا فى الشعر نبغى إدراك "اللحن"، أو الإيقاع. ولكنى قلتُ كذلك استدراكًا على مقرّرات العروض إن الأجزاء الأوائل، السبب والوتد والفاصلة، هى أساس الإيقاع الأول فى اللغة كلها لا فى الشعر وحده، أى إن هذا الإيقاع الأول "عام"، وإذَنْ وَجَبَ السؤال عن الإيقاع الأول "الخاص" بالشعر. علينا لنصل إلى الجواب الصحيح أن نستبعد كلّ ما هو

"عام" لنرى ماذا يبقَى عندنا. أما الأجزاء الأوائل المنصوصُ عليها فى العروض فهى "عامة" بلا ريب. خُذْ مثلًا قوله تعالى – ومن المقرّر أن القرآن نثر – أولَ سورة "الإخلاص": "قُلْ هو اللّهُ أحد"، مثلًا للغة كلها، فماذا نرى؟ إننا نرى فى وضوح باهر قابلية الآية لأن تُحلّل إلى إيقاعاتنا الثلاثة: "قُلْ" "هُوَلْـ" "لا" "هُأَحَدْ". القسمُ الأول يعادل السبب الخفيف، والثانى يعادل الوتِد المجموع، والثالثُ يعودُ بنا إلى السبب الخفيف، والأخير يعادل الفاصلةَ الصغيرة. وإذَنْ هذه الإيقاعاتُ الثلاثةُ ليست مطلبنا لأنها لا تخصُّ الشعرَ وحده.

ثم إننا نجد شيئًا آخرَ بعْدُ، أن هذه الإيقاعات الثلاثةَ قابلةٌ لأن تجتمع على أنحاءٍ مختلفة فيما سُمّى فى علم العروض بالتفاعيل، وهى التى نُصّ فى العلم على أنها ثمانيةٌ فى قول أو عشرة فى قول. هذه التفاعيل هى كذلك إيقاعات، بل إن "الإيقاعية" فيها أوضح منها فى الأجزاء الأوائل. ويسيرٌ علينا إدراكُ أن هذه الإيقاعات المتولّدة من بطن الإيقاعات الأوائل هى كذلك "عامة". ولنرجعْ إلى سورتنا: "قُلْ هُوَ لْلا"، فهذه كتلةٌ صوتيةٌ تعادلُ "فاعلاتن". ثم يبقى لنا من الآية ما يعادل الفاصلة الصغرى "هُأَحَدْ". ويمكنك أن تتابع السورةَ وكلَّ سورة، وكلَّ كلام عربىّ على هذا النحو من التحليل ليثبتَ عندك أن هذه الإيقاعات الثوانى هى كذلك "عامة". ها نحن أولاء نرى أن هذين النوعين من الإيقاع ليسا من "خصَائص" الشعر. ولم يبْق لنا إذَنْ شىءٌ ننظرُ فيه لنصل إلى بُغْيتنا إلا الشعر نفسه. وأنت هنا

مدعوٌّ لأن ترْنوَ وأن تطيلَ الرُّنوّ - أعنى بعقلك - فى أى بيتٍ تجعلُه موضعًا للفحص من أجْل اكتشاف الصفة الإيقاعية المميّزة للبيت، والمميزة مِن ثَمَّ لكل بيت مناظر. ولنضربْ مثلًا البيت الشهير:

قِفا نبْكِ مِن ذِكرَى حبيبٍ ومنزلِ ...

يخبرنا العروضيّون أنه قابل للتحليل، أو بلغتهم، للتقطيع على الصورة الآتية:

قِفا نَبْ	كمنذِكْرا	حبيبن	ومنزلى
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلنْ

والسؤالُ المهم الآن الذى دعانى إلى أن أطلب منك أن تكون شديد الانتباه فى نظرك هو؛ ما الذى نخرج به من هذا الرسم؟ إن لديْنا سلسلةً صوتية افتُرِض أنها تتكون من حَلقاتٍ غيرِ متساوية. أذكّرك بما قلته فيما سبق بشأن التكرار والتناسب، ثبت أنهما غير مؤثريْن فى الإيقاع. وإذَنْ لسنا بإزاء تكرار أو تناسب ولو كان أحدهما هناك ما كان له فِعل، فما الذى نحن بإزائه؟ وما الذى له فِعل؟ قلتُ لك فى بداية هذه الكلمة التى كأنها طالت إننا ننظرُ فى مسألة لا مناصَ من أن ننتهى فيها إلى قرار. فاعلمْ الآن أننا نوشك أن نبلغ غايتنا. والآن مطلوبٌ منك أن تتجاهل علمَك بالعروض، وبكل ما يقال له "تفاعيل"، وأن ترتفع لترى ما ليس فى رؤيته أدْنَى خلاف.

لديْنا عبارةٌ. ولديْنا إجماعٌ عمرُه ألفا عامٍ، على الأقل، على أن هذه العبارةَ "شعر". فعليْنا بَعْدُ – اعتبارًا واحترامًا لذلك الإجماع القديمِ الحديثِ – أن نسأل علماءَنا طَوالَ هذه الدهور ما الذى جعلكم مطمئنّين هكذا إلى أن العبارةَ "شعر"، بِمَ كانت "شعرًا"، وبماذا نردُّ على من يزعمُ – غيرَ معتبرٍ أو محترمٍ للإجماع – أنها ليست "شعرًا"؟

أغلبُ الظن أنه لن يكون عندهم إلا جوابٌ واحد: التقطيع. هذه القسمة المرسومة أمامَ أعيننا، هذا الواقعُ المحسوس الذى نطابقُ بينه وبين أى بيتٍ من "الطويل" فينطبق. قلتُ: هذه الحجةُ قائمة على مغالطة؛ على أن العبرة بالرسم، لكنها تتجاهل أن هذا الرسم رسمٌ لشىء. ونحن فى طلَب هذا الشىء لا فى طلب صورة له "ممكنةٍ"، كما قلتُ مِن قبل. ماذا كان ذلك "الشىءُ" قبل أن يتقطّع على هذا النحو أو ذاك؟ أليس شيئًا؟ بلَى. فمن حق العقل علينا أن نسأل: ما هو؟ ثم أليس "كُلًّا"؟ بلى. فما حقيقةُ "كُليّته" تلك؟ هنا يخطرُ لى، وحَسَنٌ أن يخطرَ لك أيضًا، أن الألمان لديهم كلمةٌ تنفعنا هنا لأنها تزيحُ بعضَ غموض المسألة، هى قولُهم فى معنى "الكل" أو "الكلية": gestalt "جشْتالتْ". وهم يروْن أنها فى مثل هذا السياق لا يصح أن تترجم. [راجع المادة فى York German Dictionary] كأنهم رأوا فى دلالة الكلمة هنا شيئًا يتجاوزُ الكلَّ الرياضى، أى

القابل للحساب، أو الجسمانىّ القابلَ للتحليل، إلى ما يمكن أن نسمّيَه بالكلّ "النفسانى".

تلك هى المسألة. إن الذى قاله امرؤُ القيس يتجاوزُ ذلك الرسمَ، وكلَّ رسم آخَر ممكن. إن ما ابتعثه إلى القول فلبِّى شىءٌ أسمى، شىء "عُلْوى"، كذلك الذى رآه الصرفيون فى "الأوزان" الحاكمة للكلِم العربية، وكالذى رآه ابن جنّى فى اشتقاقه الأعلى من الاشتقاق المعتاد، شىءٌ لا بأس بأن نتابعَ الألمان فى تسميته "جشتالت". شىء هابط - بعبارة ابن سينا - من "المحلِّ الأرفع"، أو فلنقلْ كما قال "أبو على" مِن عند الله.

وكأنا بلغنا أخيرًا بغيتنا، وانتهينا إلى "القرار" المأمول. الشعرُ العربىّ مركّب كما قال العروضيون من سبب ووتِد وفاصلة، وتلك أجزاؤه الأوائل، وهى إيقاعات، لكنها إيقاعات "عامة" لا "خاصة" بالشعر. ومنها تركّبت "التفاعيل"، وهى إيقاعات، لكنها كذلك "عامة" لا "خاصة".

أمّا الخاص بالشعر، الفيصلُ بينه وبين النثر، فهو ما سمّاه الخليل بالبحر. وكما ثبت أن الإيقاعات الأوائل لا تتبعّض، فكذلك الإيقاعات الثوانى "التفاعيل" لا تتبعّض، وكذلك إيقاعات البحور، لا تتبعّض، إنها 'جشتالتات' أو قُل 'وِجدانات' يعجز كل تحليل عن تفسيرها، لأن التحليل منوطٌ بالمادة، والوجدان ليس بمادة؛ إنه حركة

النفس العربية عند الجيشان؛ إنه "الطبيعة"، إنه "الخلقة"، إنه "الفطرة"، ولا زوال له – مِن ثَمَّ – إلا إذا اختلّتْ النفوسُ أو ألَمَّ بها لَمَم. ومعنى أنه لا زوال له أن السعْى إلى إزالته "خطيئةٌ سياسية"، لأنه محاولة لهدم "البنية" القومية المتمثلة قبل كل شىءٍ فى اللغة كلها نثرِها وشعرِها وقرآنِها.

ارتعاشة

أَرَعَـــشٌ أَصَـــابعي والعُمْــرُ صُــلْبُ الســـاعدِ؟
سَـلِمْتِ لي، يـا غَضَـبًا علـى الوجـودِ الراكـدِ
عَلَـى الرجـالِ استَسْـلموا، علـى الإبـاءِ الخامـدِ
علـــى جمـــوعٍ ســـفِهَتْ يـــومَ رشـــادِ الراشـــدِ
علـــى تســـاوٍ أَلْحَـــقَ السِّـــفْلةَ بالأماجـــدِ
عَلَـــى تَعَزّينـــا بِتَـــذْكارِ صـــلاحٍ بائـــدِ



قـد كنـتُ راجيًـا غـدِي، فكـادَ لا يُرْجـى غـدِي
أعـــافُ كوبًـــا في يـــدي نـــاءتْ بحَمْلِهـــا يـــدي
أنْ تتحــــدَّى جَلَــــدي توافُــــه الشــــدائدِ
أنْ تعـــرِفَ البُكـــاءَ بَعْـــدَ مَقْتِـــه قصـــائدي
أنْ أُسْـلِمَ الـنفسَ علـى رغمِـي لِعَطْـفٍ بـاردِ
أنْ يســـتجيزَ رقـــدةَ المـــوتَى طمـــوحُ المـــاردِ
ســـلِمْتِ لي في حَالِـــكٍ مُشْـــتَجِرِ المقاصـــدِ
عونًـــا علـــى آتٍ يزيـــدُ فيـــه فَقْـــدُ الفاقـــدِ
سَـــلِمْتِ، يـــا أبَـــرَّ مِـــنْ والـــدةٍ ووالـــدِ



أَعْلَـــمُ أنَّ نُفْـــرتي مِـــنْ خَـــدَمِ المـــفَاسِدِ
ومِـــنْ سَـــدَادٍ هـــو دَعْـــوَى مُسْـــتَرِيحٍ قاعـــدِ
ومِـــنْ تشـــابُهٍ سَـــرَى في أَعْـــيُنٍ هوامـــدِ
ومِـــنْ فتـــاوَى لـــيس يُضْـــنِيها اجـــترارُ الســـائدِ
آدَتْـــكِ، لكـــنْ مـــا احتيـــالي في فـــؤادٍ ســـاهدِ
وفي زمـــانٍ مُـــبْهَمٍ مُسْـــتَكْرَهِ المـــواردِ
لكنـــني أَلْمَـــحُ نـــارًا في الظـــلامِ الصـــاعدِ

يَنْــأَى بهــا وَهْــنُ الرّفــاقِ عــن عيــونِ الرائــدِ
حــتى إذا مــا شَــرَدَ اللّــبُّ صــحا في الشــاردِ
شــــيءٌ تَحَامَتْـــهُ دمــــاءُ راكــــعٍ وســـاجدِ
وأَنْشَـــبَتْهُ في عروقــــي ثـــــورةً مَواجــــدِي
أُحِسُّـــهُ أَصْــلَبَ مِــنْ هــذا الــبلاءِ الراصــدِ
يَــوَدُّ لَــوْ يومًــا يُلاقــي أَلْــفَ نِــدٍّ صــامدِ
والقَـــبَسَ الـــواهنَ شمسًـــا جَمَّـــةَ الرّوافــــدِ
فـــارتقِبِي أصــــابعِي، واحتملِــــي، وجالِــــدِي



حصار

صَاخِبٌ كـلُّ شـيءٍ ، ولا مُسْـتراحَ ، كـأنَّ الهـديرَ مَعِـى يَقْطُـنُ
وَدَعَتْـنِي المـآذِنُ ، لكـنَّ رُوحِـيَ مِـنْ عَصْـفِ أبْواقِهـا تَشْـطُنُ
وَسُـئِلْتُ فحُوصِـرْتُ كَـيْلا أُفَكِّـرَ : أَلـدِّينُ أَبْقَـى أم المـوْطِنُ
والإِذاعَاتُ تَدْوِى ، ويَزْعَقُ ناسٌ بلا مُوجِبٍ ، طَنْطِنُوا ، طَنْطِنُوا

وَسْـطَ هـذا الضَّـجيجِ هُـدوءٌ يُفكِّـرُ كَيْـفَ نَمـوتُ ولا نَفْطُـنُ
كيـف نُـذْعِنُ شـيئًا فشـيئًا لأَنْ يَطْـرُدَ المالِـكَ الأَرْضَ مُسْـتَوْطِنُ
وَنُحِـسُّ كـأنَّ امْـرَأَ القَـيْسِ حـينَ نُطَـالِعُ دِيوانَـهُ يَـرْطُنُ
وكـأنَّ جَلابِيـبَ أَبْنـاءِ يَعْـرُبَ — وَهْـىَ مُعَطَّـرَةٌ — تَعْطُـنُ
ضَـلَّ يـا خَـارِجينَ علـى الحَـاكِمينَ مُبِـينٌ لنـا غـيرَ مـا يُـبْطِنُ
فَلْتكونـوا رِجـالاً وكُونُـوا ملائكـةً بَعْـدُ أَوْ شَـيْطِنُوا
كُلُّنـا فى الهَـوانِ سَـواءٌ ، فـإنْ شِـئْتُم الهُـونَ أَضْـخَمَ فاسَّـلْطِنُوا
وَطِّـنَ الـنَّفْسَ آبٍ علـى أنْ تَعِـزَّ ، فَيَـا أَدْعِيـاءَ العُـلاَ وَطِّنُـوا



لكِ عَيْنٌ فأَبْصِري

إلى ريمان

كَفْكِفِي الدَّمْعَ، لَنْ يَرُدَّ العَوادِي أَسَفٌ مِنْ شَجِيَّةٍ، أَوْ شَجِيِّ
وأَطِلِّي على الزَّمانِ عُقابًا، وانْفِرِي مِنْ وَداعَةِ القُمْرِيِّ
وتَعَنَّيْ بِهِمِّ نَفْسِكِ، لكنْ لا تَوَلَّيْ عنْ هَمِّنا الأَصْلِيِّ
لَكِ عَيْنٌ، فأَبْصِرِي نَوْحَ باكٍ، وبَوَاكٍ، في المَأْتَمِ اليَوْمِيِّ
لَكِ عَيْنٌ، فأَبْصِرِي ما نُلاقِي تَحْتَ نِيرِ التَّقَدُّمِ الغَرْبِيِّ
يا ابْنَتِي، يا ابْنَةَ المروءةِ والحِكْمةِ والمجْدِ والهُدَى النَّبَوِيّ

إنَّمـا أَنْفُـسُ الأَنيـسِ سِـباعٌ يَتَفارَسْـنَ، بالقَنـا والقِسِـيِّ
وبأَقْـوَى مِـن السِّـلاحِ، بدِيـنٍ، ولِسـانٍ- مُجَاهِدَيْـنِ- وزِيِّ
فإذا انْفَكَّـت العُـرَى في فَريقٍ ضَاعَ حَتْـمًا، في العَيْلَمِ اللُّجِّـيِّ
والـذي لا يُعِدُّ ما يَرْدَعُ البَغْيَ- بدَعْوَى السَّلامِ- أغْبَى غَبِيِّ
مـا حِـوارٌ يَـدُورُ- بـاللهِ- مـا بَيْـنَ شِـيَـاهٍ وعَالَـمٍ ذِئْبِـيِّ
فاحْـذَرِي يـا ابْنَتِـي أسَاتِـذَةَ الذِّلَّـةِ فِينـا، خَلائـفَ ابْـنِ أُبَـيِّ
واقْرَئِي يا ابْنَتِي، لتَجْتَنِبِي خَبْطَ الحَيارَى في الغَيْهَبِ العَصْرِيِّ
اقْرَئِـي يـا ابْنَتِـي قِـرَاءَةَ حَـيٍّ يَتَحَـرَّى المِعْنـاةَ، لا غَـيْرِ حَـيِّ
لَـكِ عيْـنٌ فأَبْصِـرِي، لَيْـسَ شَـيْءٌ مِـنْ بَلايَـا تَنْوِيرِهِـمْ بخَـفِيِّ
ثُـمَّ شُـقِّي إلى العَـلاءِ طَـريقًا شُـقَّ مِـنْ قَـبْلُ، مُنْذُ عَـهْدِ قَصِـيِّ
سَـارَ فِـيهِ، كَـمْ سَـارَ فِـيهِ عـلى لأْوَائِـهِ، مِـنْ كَمِيَّـةٍ وكَـمِـيِّ
فاعْـرِفيهِ، لتَعْرِفِـي فَـرْقَ مـا بَيْـنَ ضِيـاءٍ أَصْـلٍ وضَـوْءٍ دَعِـيِّ
لَيْسَ هـذا اليَـوْمُ الـذي أَنْـتِ فيهِ غَـيْرَ جُزْءٍ مِنْ غَـابِرٍ مَطْـوِيِّ
لَـكِ مَـاضٍ عَـزَّتْ بِـهِ دَارُ لَيْـلَى، ومَغَـانِي لُبْنَـى وسُعْـدَى ومَـيِّ
فاعْرِفِـيهِ، وأَنْكِـرِي أَنْ تَكُونِـي وَطَـرًا شَائِـعًا لأَهْـلِ الغَـيِّ
وعَزِيـزٌ عَلَـيَّ دَمْعُـكِ، فاجْتَـازِي الأَسَـى، واصْبِرِي عَلَـى المَقْضِيِّ
وإذا مـا الزَّمـانُ أَعْـرَضَ عَـنَّا، فاحْـقُرِي مَنْظَـرَ الكُسَـى والحُـلِيِّ
وإذا مـا بَكَيْـتِ فابْكِـي شَـهِيدًا، لا عَـلَى حَـظِّ وَالِـدٍ مَـرْمِيِّ

وأَسِـــيرًا، ورُبَّـمــا غُلِــبَ اللَّــيْثُ عَلَـى رَغْـمِ بَأْسِــهِ اللَّيْثِــيِّ
وأَجِلِّــي ذِكْـرَى دِمَــاءٍ أُرِيقَـتْ لتُنَجِّيـكِ مِـنْ أَذَى الأَجْـنَبِيِّ
يا ابْنَتِي لَسْتِ بابْنَتِي إنْ تَحَيَّزْتِ لِلَاهٍ، أَوْ غَافِلٍ، أَوْ عَـمِيِّ
نُوِيَـتْ نِيَّـةٌ، وهـا نَحْـنُ صَرْعَـى لقَـدِيـمٍ مُسْتَحْـدَثٍ دَمَـوِيِّ
فارْفَعِـي هـذه الكَمَائِـمَ وانْـوِي، واعْزِمِـي عَـزْمَةَ الكَـرِيمِ الأَبِيِّ
إنَّ دَاءً خَلْــفَ الضُّلُـوعِ دَوِيًّـا، لا يُـدَاوَى بغَيْــرِ دَاءٍ دَوِيِّ



مُعَارَضَةٌ تَأَخَّرَتْ

أراد الله لي- جلت حكمته ودقت- أنْ أُمتَحَن، وأن يطول زمان المحنة، فنسيني ناسٌ، وذكرني ناس، وكان من بين من ذكروني أخ كريم هو"عبد العليم عيسى". فاجأتني يومًا قصيدةٌ له منشورة في جريدة"الأخبار" من الكامل الأول على روى الدال المكسورة مهداةٌ إليَّ، يُعزِّيني ويرجو لي الصمود. ونويتُ أن أعارضها، لكن ظلت العوائق تعتاقني، فتأخر تحقيق النية حتى فوجئتُ يومًا بخبر وفاته فجاءتني هذه المرثية من البحر نفسه والقافية نفسها حاملة هذا العنوان الذي تطلّب هذا البيان.

طَيْـفٌ، كَأَنَّـكَ لَسْـتَ مِـنْ لَحْـمٍ ومِـنْ عَظْـمٍ، كَأَنَّـكَ هَـابِطٌ مِـنْ فَرْقَـدِ
غُصْـــنٌ تَـــأَوَّدَ أَخْضَـــرٌ، لَكِنَّـــهُ عِنْـــدَ الشَّـــدَائِدِ لَـــيْسَ بالمتَــأَوِّدِ
صُـلْبٌ وقَـدْ غَـدَتِ الصَّـلَابَةُ سُـبَّةً في رَأْيِ خَادِمِنـا ورَأْيِ السَّـيِّدِ
قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أنْ أَزُورَكَ في غَدٍ، لَوْ كَانَ في المِقْدُورِ أَنْ يَأْتِي غَـدِي
لأَقُـولَ شُـكْرًا أَنْ ذَكَـرْتَ مُطَرَّحًـا طَـيَّ الحِجَـارَةِ واسْـتَثَرْتَ تجَلُّـدِي
لَكِـنْ عَجِلْـتَ، أَتَـاكَ آتٍ أَيِّـدٌ، مـا اسْـطَاعَ رَدَّ يَدَيْـهِ أَقْـوَى أَيِّـدِ
مَازَالَ في الإِمْكَانِ- مَنْ يَدْرِي؟- إذا مَا حَلَّ يَوْمًا يا صَدِيقِي مَوْعِدِي
أنْ نَلْتَقِي، لِمَ لا؟، وتَشْهَدَ في أَخيكَ- وقَدْ أُزِيحَ الوَقْرُ- ما لَمْ تَشْهَدِ
وتَـرَى- إذا حَجَبَـتْ نَسِـيمَ مَـوَدَّتِي عَنْـكَ الحَيَـاةُ- مَـوَدَّتِي وتَـوَدُّدِي
لِمَ لا؟ وهَـلْ سَـوَّى بَنَانَـكَ صَـانِعٌ عَبَثًـا؟ وَقَـال لِفِيـكَ فَـاهُ أَنْشِـدِ
طُـوِيَ الزَّمـانُ كَـأنَّ شَـيْئًا لَمْ يَكُـنْ، وَاهًـا، وأَوْهِ، علـى السَّـنا المتَبَـدِّدِ
وهَـوَتْ لَيَالٍ، بعد شَـكْوَى طُولِهَا، في الجُبِّ، وانْحَسَرَتْ هُمُومُ المجْهَـدِ
مـا بَـيْنَ مَوْتَتِنَـا وبَـيْنَ المؤْلِـدِ إلَّا كَمِثْـلِ اللَّمْـحِ، أَوْ قَـبْضِ اليَـدِ
مـاذا تَبَقَّـى أَيُّهـا الكَـرَوَانُ مِـنْ جَمْـرِ الغَضَـا، وسُـطُوعِهِ في المؤْقِـدِ؟!
أَيَكُـونُ- كَـلَّا، لَـنْ يَكُـونَ- مُغَـرِّدٌ يـا أَيُّهـا الشَّـادِي كَغَـيْرِ مُغَـرِّدِ
قُـمْ، واصْـعَدَنْ، غُلَـلُ الغَمَـامِ دَعَتْـكَ، فاسْـبَحْ في المحِـيطِ السَّـرْمَدِ
فَارَقْـتَ دُنْيَـا لا تُحَـبُّ، وإنْ تَكُـنْ أَحْبَبْتَهـا رَغْـمَ القَـذَى المتَجَـدِّدِ
أُلْـفَ الهَـواءُ بهـا، ولَكِـنْ لَمْ يَعُـدْ إِلْـفُ الهَـواءِ بمُقْنِـعٍ أَوْ مُسْـعِدِ

ورَحَلْـتَ فِي الوَقْـتِ المنَاسـبِ، لا مَكـانَ هُنـا لغَـيْرِ بَـلَادَةِ المتَبَلِّـدِ
ورَطَانَـةِ العُبْـدَانِ للعُبْـدَانِ، بِـئْسَ الحِبْـرُ، بِـئْسَ العَـيْشُ بَـيْنَ الأَعْبُـدِ
أَغْمِضْـهُما، إنَّ التُّـرَابَ أَبَـرُّ مِـنْ فَلَـكٍ غَـوٍ، مُتَمَـاجِنٍ، مُتَهَـوِّدِ
أَغْمِضْـهُما، لا خَيْـرَ في مُتَسَـاهِلٍ- شَـهِدَتْ هَزَائِمُنَـا- ولا مُتَشَـدِّدِ



محمود محمد شاكر

لا تُسَمُّوا ذاك البِعَادَ جَفاءً، ربَّما كان مَنْ تباعدَ أدْنَى
عَلِمَ اللهُ أنني كنتُ أشتاقُ، ولكنْ شَوْكٌ على البابِ ضنَّا
لا تُسَمُّوا ذاك البِعَادَ جَفاءً، عَلِمَ اللهُ أنَّ قلبيَ أنَّا
وتماسكتُ، بَيْدَ أني تزعزعتُ برغمي، طيرًا مَهيضًا مُضْنَى
أَفْلَتَتْ أَسْطُرَ الجريدةِ عَيْنِي واسْتَهَلَّتْ، فلم أَكُفَّ العَيْنَا
قُلْتُ بَكِّي ما شِئْتِ يا عَيْنُ بَكِّي، وأَفِيضِي المكَتَّمَ المكْتنَّا

جلَـدِي لا عَلَيْـكَ، فسِّـحْ قليلًا، جَلَدِي لَسْـتَ بالمحَمَّدِ هَنَّا
لا تُسَـمُّوا ذاك البِـعَادَ جَفـاءً، إنّ فَصْـلَ المضـافِ لا يتسـنَّى
إنَّـهُ كـان حاضـرًا، أَمَـرَ البَيْـنُ و لـكنْ عَصَـيْتُ فـيه البَيْنَـا
طالـما جَسَّمـتْ مُخيَّلتـي الجسـمَ فلَـبَّى لما دَعَـوْتُ وحنَّـا
حَمَلتْـنِي علـى مُغَالـبةِ الشـوقِ طـويلًا نَفْـسٌ تَعَـافُ المِيْـنَا
ليـس يُرْضِـي الكـريمَ أن يُفتحَ البيتُ إذا عُـدَّ صـاحبًا بَـيْنَ بَيْنَا
كَلَـفٌ لاحَ وانْـزَوَى، مَسَحَـتْهُ راحَـتاهُ، فـلمْ يَعُـدْ يُسْتَثْـنَى
وسيَـبْقَى سَـنَاهُ- مَهْـما يُـصوِّرْ وَاصِـفُوهُ سَـنَاهُ- عـنديَ أَسْـنَى
وسأَبْـقَى- وإنْ أسـاءَ الظَّنَّـا- حامِـدًا، شاكِـرًا لَـهُ، مُمْتنَّـا
غِبْـتُ لكنَّنـي عَلِمْـتُ يَقِيـنًا أنّ لي في فـؤاده الرَّحْـبِ رُكْنَـا
أَيْـنَ مِنِّـي عَهْـدٌ قَضَيْـنَاهُ كُنَّـا نَتَمَـلَّى، وحِيـنَةً نَتَغَـنَّى
نتَحَسَّـى الرَّحِيـقَ، أيُّ مَـتَاعٍ ذَخَرتْـهُ القُـرونُ لِلشَّـرْبِ دَنَّـا
كَـمْ قَرَأْنَـا مـعًا فـكان إمـامًا، أيـن مِـنِّي جَـنًى بكفَّـيَّ مُجْنَـى
ووَقَـعْنَا عـلى نَمـيرٍ عَتـيقٍ، طالَـما طَـابَ عَـذْبُهُ لكِلَيْنَـا
وَعَنَانَـا- والعَصْرُ عَصْرُ السَّماديرِ وحَرْبِ المِعْناةِ- مَعْنَى المِعْنَى
ودَفَـعْنَا عـن الجَرِيـحِ الـذي أَثْخَنَـهُ الرَّمْـيُ، واحْتَرَمْـنَا الوَزْنَـا
ولقـد مَـدَّ بَيْنَنـا الـوُدَّ أَنِّـي أَتَمَنَّـى بُلـوغَ مَـا يَتَمَنَّـى
نَفَـثَ الكَيْـدُ سُمَّـهُ فَتَصَـدَّى، وتَحَـدَّى، وكـان لِـلْأُمَّةِ ابْنَـا

ولقد كان- والمِعَاوِلُ تَهْوِي حَوْلنا، والحصونُ تَهْوِي- حِصْنَا
ولقد كان- والعزائمُ أعجازُ نَخيلٍ- عزيمةً لا تُثْنَى
شَيِّعُوهُ، فإنما خُلِقَ العَظْمُ ليسعَى بنا زمانًا ويَفْنَى
شَيِّعُوهُ، مِنْ قَبْلِ أنْ تغربَ الشمسُ غروبًا يُخْنِي على مَشْرِقَيْنَا
شَيِّعُوهُ، مِنْ قَبْلِ أنْ يَشْهَدَ الآمالَ تُطوَى، ويشربَ الدَّمْعَ حُزْنَا
ويرَى الدوحةَ العريقةَ تُهْويها فؤوسُ العُداةِ غُصْنًا غُصْنَا
لَهْفَ نفسي عليه وَهْيَ طريحٌ تحت عينيه، وَهْوَ باكٍ جُنَّا
شَيِّعُوهُ، مضى الزمانُ الذي كان جمالُ الكلام فيه مِجَنّا
شَيِّعُوهُ، مضى الزمانُ الذي كان إباءُ الهوانِ فيه فَنَّا
شَيِّعُوهُ، مضى الزمانُ الذي كان إذا هُدَّ فيه شيءٌ يُبْنَى
والذي كان عندما يُحْسِنُ المحْسِنُ يَجْزِي إحْسانَهُ والحُسْنَا
والذي كان إنْ أساء مُسيءٌ لمْ يَهَبْهُ وإنْ يَكُنْ فِرْعَوْنَا
شَيِّعُوهُ غَضًا تَصَلَّبَ حتى قلتُ هذي القناةُ لا تتحنَّى
وكَأَنِّي نَأَيْتُ كَيْلا أراهُ- بعد أنْ طالما اسْتَشاطَ - أَسَنَّا
شَيِّعُوهُ؛ وما الحياةُ إذا لم يَبْقَ منها إلا عليلٌ مُعَنَّى
شَيِّعُوهُ، وإنْ ذَكَرْتُمْ غريبًا فاذْكُروهُ يا صَحْبَهُ بالحُسْنَى
ليت شِعْري أَقِيلَ غَابَ أخٌ يا صَحْبُ، أمْ قِيلَ يَسْتَحِقُّ السَّجْنَا
طُوِيَتْ صفحةٌ، وداعًا أبا فِهْرٍ، وداعًا، وَدِدْتُ لو تتأنَّى

قطعةٌ أنتَ مِن حياتي تولّتْ، كنتَ فيها ظِلًّا ظليلًا، ولَحْنَا
شَيِّعُوهُ ريحًا رُخاءً على الخِلِّ، سَمُومًا إذا يُواجِهُ ضِغْنَا
وسلامٌ عليهِ حتى تَمُورَ الأرضُ يومًا، ويُصْبِحَ الصَّخْرُ عِهْنَا
وعَفَا اللهُ عَنْهُ؛ كان يُصَلِّي، وعسى أن يُحِلَّهُ اللهُ عَدْنَا
إنَّهُ- والذي أماتَ وأحْيَا- والذي أفْقَرَ العِبادَ وأغْنَى-
لَجديرٌ بأنْ يُلقَّى سُرورًا، ويُلاقِي في فَيْئِها مُطْمَأَنَّا
وسَقَى اللهُ دَارَةً جَمَعَتْنَا، أَيْنَ مِنِّي هَواؤُها، أَيْنَ أَيْنَا



تَجَلَّدي يا لُؤلؤة

أصــابَ رَمِيَّتَــهُ الصَّائِــدُ، وحَنَّــتْ إلــى خِلِّهــا نَاهِــدُ
أَلَا أَبْلِـغ الحــيَّ يـا دَمْعَهـا، بِأَنَّــكَ فِي أَعْيُنِــي جَامِــدُ
نَفَـاكَ أسًـى لا يُطَأْطِـئُ يومًـا لويـلٍ، نفـاكَ لـظًى بـارِدُ
ولُــبٌّ إذا فَجَأَتْــهُ الخُطـوبُ، فـإنَّ سِـواهُ هــو الشــارِدُ
ورُؤْيا، فقُلْ للعِجافِ سيأتي- وإنْ طال ليلٌ علينا- غدُ
لقــد وَعَدَتْنــي عزائــمُ ولَّــتْ، وخَلَّدهــا أدبٌ خَالِــدُ
ليُوفِـيَ قلـبٌ، ويُوفِـي لسـانٌ، وتُوفِـي يَـدٌ صافَحَتْها يَدُ
أَلَا أَبْلِــغ الــدارَ يــا دمعَهــا، بــأَنَّ مُغَيَّبَهــا عائِــدُ
تُصَاحِبُــهُ نَجَمــاتُ الغــروبِ، ويُلْهِمُــهُ مَشْــرِقٌ بائِــدُ
وأَبْلِــغْ عيالــي هنالــكَ أنِّــي لِعزَّتِهِــمْ- لا لَهُــمْ- وَالِــدُ
وأنِّــي أَحِــنُّ، ولكنَّنــي لغيــرِ الهَــوَى والنَّــوَى سَاهِــدُ



لا سَلَامٌ عَلَيْكَ

إلى بيل كلنتون

تَرَقْرَقَ دَمْعُكَ، يا لَيْتَ شِعْري أَحَقٌّ دُمُوعُكَ أمْ مَسْرَحُ
أَتَبْكِي؟ أَشُكُّ؛ إذَنْ كَيْفَ هانَ عَلَيْكَ دَمٌ آمِنٌ يُسْفَحُ
إذا كُنْتَ تَبْكِي لِطِفْلٍ تَيَتَّمَ فَابْكِ على وَالِدٍ يُذْبَحُ
أَتَقْتُلُنَا كَيْ يَقُولَ قُضَاتُكَ إنَّكَ أحْسَنْتَ، كَيْ يَصْفَحُوا
فذَلِكَ أعْجَبُ مِنْ كُلِّ أَعْجَبَ، أَطْفَحُ مِنْ كُلِّ ما يَطْفَحُ
أَتَيْتَ القَبِيحَ، ولكنَّ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ ما جِئْتَهُ أَقْبَحُ
وحَيَّتْكَ غَزَّةُ عَلَّ الطَّرِيقَ إلى رَفْعِ أَغْلَالِهَا يُفْتَحُ

وهَـا هِـيَ ذي تَحْـتَ نِـيرٍ ونَـارٍ، وبَغْـيٍ عَتَـا، لَمْ تَـزَلْ تَـرْزَحُ
لَئِـنْ كَـان ظُلْمُكُــمُ فادِحًــا، لَتَرْحِيبُنــا بِكُــمُ أَفْــدَحُ
أَلَا خَـابَ غِـرٌّ، أَلَا خَـابَ فَـدْمٌ، يُصَـدِّقُ أَنَّكُـمُ الأَصْلَحُ
أَهَـذِي حَضَـارَتُكُمْ! يَـا لَهَـا! يَـا لَقَـشٍّ بأَجْوافِكُـمْ يَسْبَـحُ
وأيُّ نِظَــامٍ، وأيُّ جَدِيــدٍ، ونَحْــنُ بفَوْضاكُــمُ نُلْفَــحُ
لَدَيْكُــمْ قُــرُونٌ، ولاكِ اعْلَمُــوا بــأَنَّ الحِجــارةَ لا تُنْـطَحُ
وأنَّ الطَّبيعــةَ ذَاتُ فُنُــونٍ، وأنَّ التَّنَــوُّعَ لا يُكْبَــحُ
إذا كَـانَ حَـرْقُ البِـلادِ، وخَنْقُ العِبادِ نِظَامًا فلَـنْ تُفْلِحُـوا
ولِلمُلْــكِ يـا مَلِكًــا مَالِـكٌ، إذا شَــاءَ فَهْــوَ لَنَــا أَرْوَحُ
أَقُـولُ لَكُـمْ: سيَئِـنُّ العِـراقُ، ولكنَّكُـمْ بَعْـدُ لَـنْ تَنْجَحُـوا
ستَبْقَـى جِراحاتُنـا يا عَدُوَّ الأَجِنَّةِ، يا سُمَّهـا، تَنْضَحُ...
عَـدَاءً، ولَكِنَّــهُ- هَكَـذا عَلَّمَتْـنا المُـرُوءَةُ- لا يَجْمَـحُ
وبُـورِكَ قَـوْمٌ أُهِيـلَ الحِمَـامُ عَلَـيْهِمْ حَمِيمًـا فمـا زُحْزِحُـوا
وإنَّ العَـذابَ الـذي نَابَهُـمْ لَمِـمَّا فُضِحْـتَ بِـهِ أَفْضَـحُ
وإنَّ صَبَاحًـا جَدِيدًا بأَطْلالِ بَغْدادَ يا فَأْسَها يُلْمَحُ...
بَعيــدًا، بَعيــدًا، ولَكِنَّــهُ لا مَحَــالةَ يــا لَيْلَــها مُصْبِــحُ
شَكَكْتُ، ولَكِنَّنِي الآنَ رَغْمَ الضَّبَابِ أَرَى، رُؤْيَتِي أَوْضَحُ
أَلَا، كُـلُّ مـا حَوْلَـنا مَذْبَـحٌ، أَلَا، كُـلُّ مـا حَوْلَـنا مَسْـرَحُ



أَسْلِمْ

إلى رُوح مَرْوة الشربيني في عِلِّيِّين

هَـذِي الموسيـقا تُزْعِجُنِـي، جَنِّـبْنيها، لا تُسْمِـعْنِي
أَعْـنِي، ووُجُودُكَ، كلُّ وُجُودِكَ، كلُّ وُجُودِكَ لا يَعْنِي
ومَتَاعُـكَ ليس مَتَاعِـي، قلتُ لصوتٍ آخرَ أَمْتِعْـنِي
ولَقَـدْ أَرْضَـاكَ نَبِيذُ الكَـرْمِ، ومَرْضَـاتِي لَـبَنُ السِّـعْنِ
وعَرَفْـتُ طعامَـكَ، لا يُغْـنِي، فامْنَعْـنِي مِنْـهُ وجَوِّعْـنِي
لَأَرَدْتُـكَ أنْ تَحْـيَا حُـرًّا، فاحْطِـمْ أقيـادَكَ واتْبَعْـنِي
شَـمِّرْ، هـذا أَجْـدَى، مـاذا نَجْـنِي مِـنْ لَعْنِـكَ أَوْ لَعْـنِي
والقومُ أجادوا الطَّعْنَ، فما لَكَ تنْفِرُ مِنْ عِلْمِ الطَّعْنِ
تَبًّـا لِسلامِـكَ يـا هـذا، إنْ لَـمْ يَرْفَعْـكَ ويَرْفَعْنِـي
ما زالَ رجائي فيكَ- عَلَى ما فيكَ- فأَسْلِمْ أَوْ دَعْنِي



قَسَمٌ للقُدس مِنْ جيلٍ قادم

قِيلتْ هذه القصيدةُ منذ حواليْ خمسةٍ وثلاثين عامًا، تأثرًا بكلمةٍ قرأتُها في جريدة "الأهرام" لمناحم بيجن، رئيسِ الوزراءِ الإسرائيلي في ذلك الوقت. قال: "ستبقى القدسُ عاصمةً لإسرائيلَ إلى الأبد". وظلَّ المعنى يترددُ طَوالَ هذه الحقبةِ على ألسنةِ خُلفائه، دون أدنى مبالاةٍ بالمفاوضاتِ الدائرةِ حولَ السلام. قصيدةٌ قديمةٌ. لكنْ جدَّدتْها المناسبة. جدَّدها استمرارُ البَغْيْ والصَّلَفِ والعُدوان، وعدمُ احترامِ المواثيق. جدَّدها أنّا – فيما يبدو – لا نُخيف. ولله الأمرُ مِنْ قبلُ ومِنْ بعد.

يَلُـوحُ، هـا هـو ذا   غَـــيَّرَهُ الهَـــــمُّ
يلـــوحُ، فَـــلتَنْحَسِرْ   يأيُّهـــــا الغيـــــمُ

* * *

هـا هـو ذا وَجْهُهـا   فَـوْقَ مُصَـلّى عُمَـرْ
كـالنجمِ ، لكنّمـا   أَوْهَـي سـناهُ القَـدَرْ

* * *

عينـــانِ أوْمَضَـــتا   فـــانطبقَ الجَفْنَـــانْ
كـيْلا يسـيلَ الأسَـى   مِـنْ وطـأةِ الإذعـانْ

* * *

مـا هـذه النظـرةْ   كأنهـــا جَمْـــرَةْ
ذا كِبرُهـــا طاويًـــا   عـــن الـــوَرَى سِـــرَّهْ

* * *

يـا دَمعَهـا ارْفَـضَّ لا   يـذهبْ بهـا الكَمَـدُ
دعيـهِ يـا أختُ، مَـا   خَـالٍ كَمَـنْ يَجِـدُ

* * *

دعِـي الجَـوى ينْهَـلّْ،   فربّمـــــــا يَنْسَـــــــلّْ
آدَتْـــــكِ مســـــألةٌ،   وفي يــــــديْنا الحــــــلّْ

هــــا هـــو ذا صـــوتُها   أذَّنَ للفجـــــــــــــــــرِ
اللّهُ أكـــــبرُ مِـــــــنْ   طـــــــاغٍ و مُغْـــــــترِّ

* * *

فلَـــمْ يُجِـــبْ محـــرابْ   رجْـعَ الصَّـدىَ المنسـابْ
وانـــــداحَ مُخْتَنِقًـــا،   فالجُنْـــــدُ بالأبـــــوابْ

* * *

أقـــــامَهمْ أنَّنـــــا   ظِـــلُّ لشـــيءٍ غـــابْ
أقـــــامهمْ عَـــــرَبٌ   أعيــــاهمُ الإعـــرابْ

* * *

وأنَّ ثُوَّارَنَـــــــــــا   محترفُـــــو ثَـــــوْرَةْ
وأننـــــا –كُلَّنـــــا –   مُصــــــفِّقٌ مُكْـــــرَهْ

* * *

كانـــت مناظرَنـــا،   فأصـــبحتْ حُلْمَـــا
يـا غيـبُ نَـبِّيءْ، تُـرَى   أَنَلتقـــي يومَـــا

* * *

القـدسُ "كانـت" لنـا،   أسْـــرفتِ يـــا أيـــامْ
فهـــلْ بهـــا مـــا بنـــا،   أمْ ســـكنَ التَّهْيـــامْ

بَغَـــى الـــذين بَغَـــوْا   قبـــلُ علـــى موسَـــى
وظَـــــلَّ يشـــــتُمهُمْ   – حتى قضَى – عيسىَ

* * *

لسـنا الـذين رَمَـوْا   بهـــمْ إلى المنفَـــى
هـــذي مدينتُنـــا   ألْفًـــا تَلَـــتْ ألْفَـــا

* * *

لمـــــّا قَصَدْناهــــــا   مفتاحُهــــــا لَبَّــــــى
فمــــــا أردناهــــــا   مُسْلمــــــةً غَصْبَــــــا

* * *

صُـــــلْبانُها خَرَجـــــتْ   تســـــــتقبلُ الأَهْـــــلا
مِــنْ بَعْـدِ مـا عَرَفـتْ   أنـــــَّا بهــــا أوْلَـــــى

* * *

علـــــى مداخلِهــــــا   سيوفُنَـــــا خَشَعـــــتْ
وعاهَـــــدَتْنا، فمــــا   خُنّـــــا، ولا خَـــدَعتْ

* * *

وصــــــاحَبَتْنا فمـــــا   كُنَّـــا سِـــوى الأبـــرارْ
هَـــلْ أنكــرتْ وُدَّنـــا   نحـــنُ- حُمــاةَ الجـــارْ

هَـــلْ أضــمرتْ نَأْيَهـــا   كـــلّا ، عَــدَاها العـــارْ
مـــا كـــان ذا رأيَهـــا،   ذلـــــك رأىُ النــــــارْ

* * *

راحــــتْ لهـــمْ يـــدُنا   تَسْــــــعَى فَردُّوهـــــا
قُلْنـــا : ســـلامٌ، ومــا   قلنــــا اســـــتبيحوها

* * *

لجَّ الغـــــرورُ بهـــمْ   لأنهـــــمْ قَـــــدَروا
لأنهـــــمْ أَمَــــرُوا   ونحـــــنُ نــــأتمرُ

* * *

بـــوحِي لنـــا بُـــوحِي   يـــا قُبـــةَ الصـــخرةْ
أفضِـــي إلى الـــريحِ،   ولـــــوْ بمـــا نكـــرَةْ

* * *

"مَـنْ أنـتمُ ، وَيْحَكـمْ،   مـــا هـــذه السَّـــكْرةْ
كأنمــــا ضُــــرِبتْ   علـــــيكمُ الحَيْــــرَةْ

* * *

رأيـــــتُكم كَثْــــرَةْ   لكـــنْ بـــلا قُـــدْرَةْ
رأيـــــتُكمْ عَرَبًــــا   فَـــــاتَتْهمُ الغَـــــيْرَةْ

جَهِلْـــــتمُ الإمْـــــرَةْ   يـــا عاشـــقي الإمـــرَةْ
وأنــــــتمُ أَعْبُــــدٌ   لا أنفُـــــسٌ حُــــرَّةْ

* * *

تركتُمـــــوني هنـــــا   أمشِـــي علـــى الشَّـــوكِ
تـــــاريخُكمْ وأنـــــا   في قبضـــــةِ الشّـــــرْكِ

* * *

أمســـــــلمونَ، إذَنْ   جهلـــــتمُ النُّسْـــــكا
مَـنْ ضَـنَّ بـالنفسِ مـا   صــــــلَّى ولا زَكَّـــــى

* * *

أمســـلمونَ ، أَجَـــلْ،   لكــــنْ بــــلا ديـــنِ
حتـــى يُجَمِّعَكُـــــمْ   جـــــرُحُ الملاييــــنِ

* * *

ضـاعَ دمٌ سـالَ مِـنْ أفئـــــدةٍ شَتَّـــــى
ألَـــمْ يـــئِنْ لكـــمُ أنْ تُحْســـنوا الموتـــا"

* * *

قلنـــا: حنَانَيـــْكِ رِفْقًـــا بعينَيـــْكِ
يا قـدسُ ، يا قُدسَنَـا، لبَّيْـــكِ لبيـــكِ

سَـــنَلْتقِي في غَـــدٍ، بِـــرغْمِ مـــا تَشْـــكِينْ
مـــا دامَ في رُوحنـــا يَسْـــري صـــلاحُ الـــدينْ

* * *

إنَّ الأُلَى صَـــــنَعُوا بِبَأْسِـــهِمْ حِطّـــينْ
لَحـــارِقٌ دَمُهُـــمْ أفاعـــيَ التَّـــوْهينْ

* * *

ذَلّ تـــرابٌ لهـــمْ، وأذعنـــتْ سِـــككُ
أمـــــّا عزائمُنـــا فليـــس تُنْتَهَـــكُ

* * *

مــا زال في الإمكــانْ يــا شَــامُ يــا لبنــانْ
يــا مصـرُ يـا سـودانْ أبـــدعُ ممـــا كـــانْ

* * *

وإنْ كَبـــا يومُنـــا فمـــا كَبـــا الأمـــسُ
لَطالمـــا غَرَبـــتْ وأشـــرقتْ شمـــسُ

* * *

لــن نســتكينَ ولَــوْ تَهَـــوَّدَ الفَلَـــكُ
كــلّا ، ولــو مَلَكــوا أضــعافَ مــا مَلَكــوا

"للسَّـلْم قـد جَنَحـوا" قُلنـــا: "كفَـــى زُورا"
لَطالمـــا ذبَحـــوا، وهـــدَّموا الـــدُّورا

* * *

لــو أَشْــفَقُوا أَشْــفَقُوا علــى صِــبا يوسُــفْ
ومَـــنْ أَثِـــمْنَا إِذا قيلـــتْ لديْـــهِ : أُفّْ

* * *

يـا آلَ يعقـوبَ كـمْ   فِي جَـوْفِكمْ مِـنْ جُـبّْ
يــا وَرْىَ أكبــادِهمْ   مِـنْ أيـنَ يـأتي الحُـبّْ

* * *

والليــلِ إذْ أَدْبــرْ،   والصــبحِ إذْ أســفرْ
لَيَطْلُبـــُنَّ غـــدًا   أنْ يدخلــوا خَيْبَــرْ

* * *

ســتطمعُ السِّــكينْ   إذا جَـــرَتْ في لـــينْ
ولـــم تُثِـــرْ غَضَـــبًا   جنايـــةُ الجانِيـــنْ

* * *

ولـــيس فيمـــا كـــانْ   مـــا كـــان في الحُسْـبانْ
ننسَى ، وهـا هـي ذي   عقوبـــةُ النســـيانْ

كانــتْ لنــا يافــا كانــت لنــا عَكّــا
والآن مـــاذا همـــا حكايـــةٌ تُحْكَـــى

* * *

ناحـــتْ أغانينـــا تقـــولُ وأسفـــا
تبكِـــي وتُبكينـــا عـــلى الـــذي ســـلَفا

* * *

"كانــت لنــا أوطــانْ – وتـــدمعُ العينـــانْ –
يــا عــدلُ أيــن الآنْ، أيــن الــذي قــد كــانْ!

* * *

لِغَيْرنـــا الغيطـــانْ، وزَهْرُهـــا الرَّيّـــانْ
لِغَيْرنـــا عَبَقـــتْ نســـائمُ الرَّيْحَـــانْ

* * *

نشـــتاقُ يـــا ظِـــلُّ، نشـــتاقُ يـــا فـــُلُّ
نشـــتاقُ يـــا وطنـــًا ينْحَـــلُّ ينحَـــلُّ"

* * *

قُلنـا: دَعُـوا الأحـزانْ لحـــائطِ المَبْكَـــى
نَخشَــى يَـجِيءُ زمـانْ يـــدكُّنا دَكَّـــا

الفُـــلُّ لا يُؤْسَـــى عليـــه والنِّسْـــرينْ
مصـــابُنا أقسَـــى مِـــنْ أَرَجٍ مســـجونْ

* * *

مصـــابُنا الألحـــانْ، وتافِـــهٌ فنَّـــانْ
غـــنَّى، وغادَرَنـــا كالـــدودِ والجُـــرْذانْ

* * *

مصابُنـــا أَنَّـــا هُنَّـــا، وَلَكِنَّـــا
كأننـا – مِـنْ رِضـىً بالـــذلِّ – مـــا هُنّـــا

* * *

قُلنـا: دعـوا الشكوَى، العـــدلُ أنْ نقـــوَى
وابكُـــوا الكرامـــةَ إنْ تبكُـــوا علـــى المـــأوىَ

* * *

كانـــت لنـــا يافـــا كانـــت لنـــا عَكّـــا
قلنـــا: قضـــاءٌ جـــرى، لكـــنْ كَفـــىَ تَرْكـــا

* * *

أمّـــا الســـلامُ فـــذا لفـــظٌ بـــلا مَعْـــنَى
إِذْ إنَّ كُـــلًّا علـــى لـــيلاهُ قـــد غَـــنَّى

قلنـــا: ومَـــنْ لم يَـــذُدْ عَـــنْ حوضِـــه يُهْـــدَمْ
والظّلـــمُ طَبْـــعٌ، فَمَـــنْ لم يَـــدَّرِعْ يُظلَـــمْ

* * *

أمّـــا الســـلامُ الـــذي لم يَحْمِـــه سَـــيْفُ
فهـــو الســـحابُ الـــذي بـــدَّدَه صيـــفُ

* * *

إنّـــــا ســـــــواءٌ إذا   مــــا سنــحَ القَطْــفُ
فمــا عَفَفْنــا مُريــدينَ،   ولا عَـفـُّــــــــــــوا

* * *

حَمَــائمُ الأَيــْكِ لـــم   تَسْتحـــرم الفَتْكـــا
لـو اسـتطاعتْ رَمَـتْ   لِتمنــــعَ الأَيْكـــا

* * *

يــا قـدسُ لـنْ نبكِـي،   يــا قـدسُ لـنْ نبكِـي
إنْ لم يجِــئْ حقُّنــا   طوْعًـــا، فبالسَّـــفكِ

* * *

والـــنَّجْمِ إذْ ينحَـــلّْ   محمـــدٌ مـــا ضَـــلّْ
هـــمُ العــدوُّ، غــلا   عــــداؤُهمْ أوْ قَــــلّْ

ووالـــذي أَسْـــرَى   بعَبْـــدِه في اللّيْــــلْ
لَنَــــرجِعَنْ قَسْـــرَا،   بِــرَغْمِ أنــفِ الويــلْ

* * *

والتـــينِ والزيتـــونْ،   وطـــــورِ سِـــــينينا
والبلـــدِ الـــمَأْمونْ،   إنَّـــــا لَمُوفونـــــا

* * *

إنّ لدينا عملًا

عَضَّ زمانٌ، ووهَتْ أَعْظُمٌ، وآدَ زَنْدَىَّ الذى لا يئودْ
صار صبِىُّ المهدِ شيخًا، كما صار هشيمًا بعد ما اخْضرَّ عُودْ
وقال شَعْرٌ شَابَ إنّ المَدى ضاقَ، وإنى لاحقٌ بالجُدودْ
أنا هنا الآنَ، ولكنْ غدًا أُمسى طعامًا دون شَكٍّ لِدُودْ
فلْيخْسأ القيدُ على مِعصمى؛ زائلةٌ يومًا جميعُ القيودْ
عَضَّ زمانٌ، ودَنا مَغربٌ، ولاحَ لى ماءٌ، وعزَّ الورودْ
تُرى إلى أين؟! بريدى مَضَى، فهل تُرى أُمْهَلُ حتى يعودْ
أحاطَ بى سورٌ، فلمْ تمتثلْ لِحُكْمِهِ وَرْقاءُ تهْوَى الصعودْ

رقَّـتْ، فلـمْ يَشْعُـرْ بتحليقهـا ـ لَمَّـا تَـخَطَّتْهُ ـ رصاصُ الجـنـودْ
عـاجـتْ علـى بَيْتِـى، وألـقـتْ عـلـى سُكّانِهِ نظْرَةَ حانٍ وَدُودْ
وحينمـا هــاجَ الجَـوَى دَمْعَـهـا أَمَـرْتُ فـورًا عـينَـهـا بـالجمـودْ
إنّ لـديـنـا عَـمَـلًا، والأسـى ـ تبًّـا لِكُتّـاب الأغـانـى ـ قُـعـودْ
تخلَّصى، وَارْتفعى، غَلْغِلى طَـيَّ الكثافـاتِ، وشُقِّى السُّـدودْ
نـادَى مُـنـادٍ خَـلْـفَ تلك الرُّبى، فَاسْتَقْبِلى ما عِندهُ مِن وُعـودْ
وَجَـدِّدى البَيْعـةَ؛ جَـفَّ الثَّرى، وكَفَّ حيـنَ البـأسِ وَرْىُ الزُّنـودْ
وَاسْتَـرْوِحِـى، إنّ خَـضَــارًا بَـدَا، وربمــا لـبَّـتْ هَــوَاكِ النُّـجـودْ
لكـنْ إذا فــاحَ شــذًى فَـاحْـذَرى أن تَـقَـعِـى أسـيــرةً لِلْــوُرودْ
إنّ لــديــنـــا عـمـــلًا، والــذُّرى لـم تُــرْقَ إلا بـتـوالـى الجـهــودْ
تَـذَكَّـرِى العُـشَّ وأفـراخَــهُ، والـوَبَــأَ الآتِــى، وَقَـوْمِـى الـرُّقـودْ
مــا أَبْـشَــعَ المَنْـظـرَ! لَـوْ أنّـهـمْ تَـصَـوّروهُ لَاقْشَعَـرَّتْ جُـلــودْ
ذاتَ الجَناحَيْنِ اسْبَحِى وَاسْبَحِى، عِفْتُ الهواءَ المْيتَ عِفْتُ الرُّكُودْ
لكنْ إذا أَغْـراكِ جَـوٌّ خَـلا، فَـلا تُطيـلـى فى الخــلاء الهُجــودْ
ولا تُـجـيـزى لِمَـقـامٍ عَلا ـ مَـهْـمـا عَلَا شأنُكِ ـ تَرْكَ السُّـجـودْ



ابن الملـوَّح يَبـْرأ

الخطـابُ لصـاحبٍ أصَـابهُ غـرامٌ . وبَعْـدَ مجاهـدةٍ بـرئَ منـه، أو هكذا ظَنَّ، فقال راضيًا عن بُرْئه ((أضاءتْ، واحْتَرَقَتْ)).

أَرِقْـتَ يــا صـاحبِـي ومــا أرِقَــتْ، فلْتحْـمـد الله أَنَّـهـا احترقَـتْ
لَمَحْتَ طيَّ الدُّجَى سنا لهبٍ، فقلتَ لَيْلَى بمَوْهِنٍ شَرَقَتْ[1]
ومــا أضــاءتْ، أضــاءَ خُـلَّـبُـهــا، وإنـمـا نــارُكَ التي بَـرَقَـتْ[2]
لَـمّـا كَـبَـتْ بـالـدليـلِ حـيْـرتُـه، ومَـلّ حـادٍ حُـداءَه، ورَقَـتْ[3]
رُقـاتُـنـا مُـدْمنـي الـهــوانِ سُـدًى، سَلَـوْتَ لَمّا بمَوْهنٍ طرَقَتْ
فتحتَ بابًا لأسهمٍ كَمَنتْ، لوْ لمْ تُفسِّحْ لها لَما مَرَقَتْ[4]
أعيذُها منكَ نظرةً صدقَتْ، أنْ تكسوَ اللحمَ أعظمًا عُرِقَتْ[5]
وأنْ تُسمِّي أذًى هـوًى، وكفَى سَرَّاقـةَ المكْرُماتِ ما سرَقَتْ
أخشَى رمـادًا، تُحيلُه طَلَلًا .. سُبْلٌ بكلّ الأحبّـةِ افترقَـتْ
فــإنْ يُعـاوِدْكَ هاجسٌ، فلقدْ أرِقْـتَ يـا صاحبي وما أرِقَتْ
أو صَـوَّحَـتْ – لا عليكَ – نـابتـةٌ، فلَم تزلْ ثَمَّ نبْتَةٌ وَرَقَتْ[6]
أَوْ لَـمْ تشمَّ العَرارَ إذْ عَرَضَتْ نَجْدٌ، فبُؤساكَ عادةٌ خُرِقَتْ[7]
ضَيَّقتَ رَحْبَ المدى إذا مَلأتْ رحابَه ذاتُ مُسْدَلٍ فَرَقَتْ[8]
قـد جَـمَعَتْنا غرائزٌ حَكَمتْ، أجلْ، ولكنْ همومُنا فَرَقَتْ[9]

(1) المَوْهِن كالوَهْن نحو منتصفِ الليل، أو بعد ساعةٍ منه. وشرِقت كأشرقت.
(2) يُقال بَرْقٌ خُلَّبٌ وهو ما يكون في سحاب خُلب، أي لا مطرَ فيه، فكأنه يَخْدع.
(3) رَقَى استعملَ الرُّقيةَ في النفع أو الضرر، وهي عَمَلٌ يُستعانُ به للحصولِ على شيء بِقُوًى غريبة. والرُّقاة جَمْعُ الراقي.
(4) مَرَقَتْ: نَفَذَتْ.
(5) عُرِق العظمُ : أُكل ما عليه من اللحم.
(6) صَوّحتْ يبِستْ. ووَرِقَ الشجرُ ظهرَ ورقُه.
(7) العرارُ نباتٌ طيبُ الرائحة.
(8) فَرَقَ الشعرَ سرّحه.
(9) فَرَقَتْ: فَصَلَتْ.

وثَـمّ شـيءٌ يظـلّ بعـدُ إذا هَـرَقْـتَ مـاءَ الحيـاةِ، أو هـرَقَـتْ
هـذا، وإلّا فنحـنُ سائمـةٌ مِـن بَعْـدِ أن أَرْضـت المِعَـى ذَرَقـتْ[1]
حيـالَـكَ الأفْـقُ كي تـراه، فمـا جـافتْـه إلا نـواظِـرٌ بَـرِقَـتْ[2]
وغـارَ نـجـمٌ لتُـسْتـفـزّ نُـهًـى، وَذرَّ صبـحٌ لجـبـهـةٍ عَـرِقَـتْ[3]
وانـظـرْ إلـى البـحـر، ذي سفـائنُنـا كأنهـا دونَ عِـلةٍ خُـرِقَـتْ
ولْتسأل الأرضَ مَا أَلَـمَّ بها، وكيف مِـن بَعْـدِ سَمْحِهـا شَـرِقَـتْ[4]
فلَـمْ يَعُـدْ يُنْبـتُ الكـرامَ ثَـرًى، آبـاءُ آبـائِـنـا بـه اعْـترقَـتْ[5]
وكـيـف هُـنّـا لأنّ أعـينَـنـا سُـودٌ، وأعـيـانَ غَـيْـرنـا زَرِقَـتْ
تـقـسّـمَـتْـنـا خـرائـطٌ لَعَنَـتْ رسَّامَـهَـا، أَيْمنَـتْ أو اعْـتَـرَقَـتْ[6]
خـاضـتْ بـأسـلاكِهـا مُـخَيِّلتـي، وقـاتـلَ اللّهُ أنفسًـا فَـرِقَـتْ
فَـاسْتَـهْـجِـنَـنْ أدمعًـا شَـرِقْـتَ بـهـا، كأنّـهـا بالمُـريقـهـا شـرِقَـتْ
شَـكَكْـتَ لـمَّا رأيتَـها بَـرِقتْ، فـقـال جَـمْـرُ الغَضَـا لـمنْ بَـرَقَـتْ؟[7]
فهـاكَ بعـضَ اليقـينِ، هـا هِـيَ ذي حصونُـنا كُلُّهـا قـد اخْـتُـرِقَـتْ
سِيَّـانِ فينا جمـاعـةٌ قَـصَـرَتْ جـلـبـابَـهـا، أو جمـاعـةٌ مَـرَقَـتْ[8]
وأصبـحَ الشـاعـرون تَـفْـضُلُـهـمْ عِـنـدي – وعَـفـوًا – دجـاجـةٌ قَـرَقَـتْ

---

(1) المِعَى مُفردُ أمعاء، وذَرَقَ تغوّط.
(2) لمْ تقدِرْ على النظر.
(3) ذَرَّ طَلَع.
(4) شَرِقَتْ: امتنعتْ أنْ يجرىَ الماءُ فيها.
(5) اعْترقَ الشجرُ: امتدّتْ عروقه فى الأرض.
(6) أيمنتْ دلّتْ على بلاد اليمن، واعترقَتْ دلتْ على العراق.
(7) بَرَقَتْ: تزينت.
(8) مَرَقَتْ: ضلّت.

صاروا سواءً، بُكاةَ غادرةٍ، أو أَمةٍ في ضلالِها غَرِقَتْ
لا كان فَنُّ الرثاءِ إنْ سَكنتْ ريحٌ، بغير المنادبِ انْخَرَقَتْ[1]
ويَشْتُم الساخطون أَنْفُسَهُمْ، لِيُخْطِئَ الشتْمُ أرؤسًا خَرِقَتْ
لا كان فَنُّ الهجاءِ إن خَفِيتْ جلودُ قومٍ بهِ وقد يُرِقتْ[2]
أَطْرِقْ، ولكنْ لحيلةٍ، فَلَقَدْ ضِعْنا، وحَسْبُ الخطوبِ ما عَرَقَتْ[3]



(1) انخرقَتْ: اشتد هبوبُها. والمنادبُ جَمْعُ المندبِ وهو نَدْبُ الميت.
(2) يُرِقَتْ: أصابها اليَرَقانُ وهو مرضٌ جِلدى.
(3) يُقال عَرَقَتْه الخطوبُ أي أخذتْ منه.

نـــاران

"لَكَ عَيْنٌ يَكادُ يَطْفُرُ مِنْها... - قُلْتُ: تَحْنَانُها؟ - فَقَالَتْ: أَجَلْ،
غَيْـرَ أنَّ الحَنـينَ يُضْـمِرُ أَمْـرًا"، قُلْـتُ: خَيْـرًا؟ فَـرَدَّ عَنْهـا الخَجَـلْ
قَـدْكِ لَـيْلَى، فَلَيْسَ هـذا بهـذا، لَيْسَ جَـلُّ الجِنانِ في السُّفْنِ جَلّْ[1]
بَيْـنَ نَـارَيَّ فَـرْقُ مـا بَـيْنَ هَـذَيْنِ، فَإِيَّـاكِ، لا يَضِـرْكِ العَجَـلْ
خَرَقَـتْ لَحْـمَكِ البَضِـيضَ لِحَـاظِي لِتَقَـرَّى مِـنْ بَعْـدُ شَـيْئًا أَجَـلّْ
كُلَّـما شِمْتُـهُ اسْتَطَـارَ فُـؤَادِي لِسَنَـاهُ سَنَـا ذَوَاتِ الحَجَـلْ

(1) قَدْكِ: اسم فعل بمعنى كفى أو يكفي، والكاف مفعول به لقد، والجَلُّ الأولى: الورد، والأخرى الشِّراع.

وَكَأَنِّــي حَمَامَــةٌ زَجَلَتْــها- بُغْيَــةَ الفَــوْزِ- أَمْنِيَــاتٌ زُجَــلْ[1]
خِيــفَ يــا حُلْــوَةُ الطَّــرِيقُ إِلَيْــهِ، فتَحَامَــاهُ شِعْــرُنا والــزَّجَلْ
وزَوَاهُ- جَهْــلًا وعِلْــمًا- نِسَــاءٌ هَمُّهَــا، كُــلُّ هَمِّهَــا، في التَّجَــلّْ[2]
ورِجَــالٌ دِيسَــتْ لِتَــأْبَى فَــلَمْ تَــأْبَ، رِجَــالٌ يُشَابِهُــونَ الرِّجَــلْ[3]
أَنْــتِ مَدْعُــوَّةٌ لِأَنْ تَعْرِفِيــهِ، ولِئَــلَّا يُوهِــي قُــوَاكِ الوَجَــلْ
ولِأَنْ تَحْبَلِي بِمَـاشٍ عَـلَى الشَّـوْكِ، وإِلَّا فَفِيـمَ كَـانَ النَّـجَلْ؟[4]
أَبْلِغِي لِحَمَـكِ البَضِـيضَ اشْـتِياقِي، واشْـتِياقِي أَيْضًـا لِحَرْبِ الـدَّجَلْ
يَتَمَشَّــى مــا بَيْنَنــا ثَابِــتَ الخُطْــوَةِ، أَمَّــا رَشادُنــا فَحَجَــلْ[5]
للشَّـيَاطِينِ حَيْثُ كُنْتِ عَزِيفٌ ، أَرْهِفِي السَّـمْعَ تَسْتَبِينِي الزَّجَلْ[6]
وهْـوَ أَصْـلٌ، ولَيْـسَ في يَـدِ أَيْـدٍ أنْ يَقِينَـا- وقَـدْ عَثَـرْنَا- الرَّجَـلْ[7]
أَرَأَيْــتِ الأَفْعَــى تَكِيــسُ لِتَنْــقَضَّ، فمَــنْ عَلَّــمَ الأَفَــاعِي الزَّجَــلْ[8]
كَــذَبَ الفَيْلَسُــوفُ، إنَّ الــذي حُدِّثَــهُ الغَــارُ لَيْــسَ بالمرْتَجَــلْ

(1) زَجَلَ الحمامةَ: أرسلها إلى بعيد فهي زاجل، وزُجَل: جمع زُجْلَة، الجماعة من الناس، واسْتُعير للوصف ومطلق الاجتماع.
(2) زَوَى: نَحَّى، والتَّجَلّْ: التَّجَلِّي.
(3) الرِّجَل جمع الرِّجْلَة، وهي بَقْلَةٌ تنبت على طرق الناس فَتُداسُ، ولهذا وُصِفَتْ بالحمق.
(4) النَّجَل: الولادة.
(5) حَجَلَ: مَشَى وئيدًا على رِجْلٍ واحدةٍ.
(6) عَزِيفُ الجِنِّ: أصواتُها، والزَّجَل هنا بمعناها.
(7) الأَيْد: القوة، والرَّجَل: إصابة الرِّجْل.
(8) تَكِيسُ الحَيَّة: تَتَحَوَّى، أي تستدير في مكاسها. والزَّجْل بتسكين الجيم: الظُّلْم، وحُرِّك للقافية.

جَهِـلَ المهْـرُ، وهْـوَ أَجْهَـلُ مِنْـهُ، فِـيمَ في أَيْطَلَـيْهِ كَـانَ حَجَـلْ[1]
فاسْتَرِيبِـي إذا التَّقَـدُّمُ نَـادَى، قَـدْ يَكُـونُ الـبَلَاءُ في مُهْتَجَـلْ[2]
غَمَـزَتْ مُومِـسٌ بعَيْـنٍ، فـلا يَفْتِنْـكِ في أَعْـيُنِ الهَجُـولِ الهَـجَلْ[3]
أو غَـوَانٍ حَسَدْنَـها لمِدِيـحٍ، عِجْلَـةٌ غُوزِلَـتْ فَـغَارَتْ عِجَـلْ
وإذا مـا رَأَيْـتِ قَهْقَـهَةَ الغِـرِّ فقُـولِي: رَأَيْـتُ عَيْـرًا زَجَـلْ[4]
وإذا مـا زُهِـيتِ فازْهِـي بـجُهْدٍ، وجِهَـادٍ، لا باللَّـمَى والنَّجَـلْ[5]
بَـزَّ كُـلَّ الـوُجُوهِ عِنْـدَ اكْتِنَـاهِ الحُسْـنِ وَجْـهٌ إذا انْتَصَـرْنا بَجَـلْ[6]
زَوِّدِينـا إذَنْ بمـا سَـوْفَ يَبْـقَى مَـا بَقِينَـا، ويَسْتَدِيـمُ الرُّجَـلْ[7]
وإذا مـا نُجِلْـتُ يَوْمًـا فقُـولِي- لِتُعَـزِّي أَحِبَّـتِي- كَـمْ نَجَـلْ![8]
واحْبِسِـي الـدَّمْعَ وادْفِنِيـنِي سَرِيعًـا، وأَعِيـنِي سِـوَايَ كَيْمَـا يُـجَلّْ[9]
نُصْـبَ عَيْـنِي فَجْـرٌ يُوَارِيـهِ فَجْـرٌ دَبْـرَ عَـيْنِي، مُؤَلَّـفٌ، مُفْتَجَـلْ[10]
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ، ثُمَّ هَلْ، آتِيَنْهُ؟ أَمْ يَحُولَنْ مِنْ دُونِ ذاكَ الأَجَلْ



(1) أَيْطَلَيْهِ: مثنى أَيْطَل والجمع أَيَاطِل: الخاصرة. والحَجْل بتسكين الوسط: بياض في رِجْلِ الفرس.
(2) مُهْتَجَل: مُبْتَدَع.
(3) الهَجُول: المومِس، والهَجَل: غَمْزُ المرأةِ بعينها.
(4) زَجَلَ: رَفَعَ صَوْتَهُ وأَجْلَبَ.
(5) اللَّمَى: سُمْرةٌ مُستحسَنةٌ في باطن الشَّفَة. والنَّجَل: اتِّساعٌ مُستحسَنٌ في العَيْن.
(6) بَجَلَ: فَرِحَ.
(7) الرُّجَل: جمع رُجْلَة بضم الراء وهي الرُّجولة.
(8) نُجِلْتُ: طُعِنْتُ، والنَّجْلُ الفِعْلُ.
(9) يُجَلّ: يُجَلِّي أيْ يَسْبِقُ، وهو في الأصل من وَصْفِ الفَرَس.
(10) دَبْرَ عَيْنِي: خَلْفَها، أيْ لا يُرَى، عكس نُصْب. ومُفْتَجَل: مُخْتَلَق.

وَاضِح

وَاضِـحٌ أَنَّـهُ هُنَـاكَ، وأَنَّـا فِي غَـدٍ رُبَّمَـا نَكُـونُ الفَـرَائِسْ
فَمِـنَ العَقْـلِ أَنْ نَـرَاهُ، وإِلَّا فكَأنَّـا نَقُـولُ دُسْ لِلـدَّائِسْ
وَاضِـحٌ أنَّنَـا سَنُرْمَى جَمِيعًـا، فلْيُفَكِّـرْ مَرْؤُوسُـنَا والـرَّائِسْ
ولْتُطامِنْ مِنْ دَلِّها ذاتُ دَلٍّ، ولْيَدَعْ مَيْسَهُ المغَفَّلَ مائِسْ
ولْيَـدَعْ كِذْبَـهُ مُهَـوِّنُ فَـرْقٍ فُرِقَتْـهُ مَسَـاجِدٌ وكَنَـائِسْ



فَتْوَى لكنَّها مَرْفوضة

أَحِـنُّ، يُرَفْـرِفُ طَيْـرًا بصَـدْرِيَ عِنْـدَ الغُـدُوِّ وعِنْـدَ المبِيـتْ
أرَاهـا هُنالِـكَ، تُوحِشُـنِي كُـلَّ يَـوْمٍ شَـوَارِعُكُمْ والبُيُـوتْ
فـلا تَحْسَـبُونِي إذا مـا نَسِـيتُمْ لأنَّ البِعـادَ اسْـتَطَال نَسِـيتْ
أَتَانِيَ صَوْتٌ فَخِلْتُ- ولسْتُ الذي قدْ عَنانِيَ- أنِّي عُنِيتْ
ولَمْ يَـدْرِ إذْ فَـرِحَ الكَـرَوانُ ولَعْلَـعَ في الصُّـبْحِ أَنِّي أَسِـيتْ
طَلِيـقٌ، يُكَلِّـمُ خِلَّانَـهُ وأُكَلِّـمُ نَفْسِـي، خَـلَا وشَـجِيتْ
ولَمْ يَـدْرِ وَهْـو يبـثُّ الهَـوَى ويَفْـتَنُّ في البَـثِّ أَنِّي هَوِيـتْ

وما بِيَ أَنِّي- وإنْ كان وَعْرًا على المرْءِ حَزُّ الجَفَاءِ- جُفِيتْ
وما بِيَ وَجْهٌ مَلِيحٌ، وفَرْشٌ وَثِيرٌ، ولَيْلٌ، ومِسْكٌ فَتِيتْ
ولَكِنَّ ما بِيَ أَنِّي مُرادٌ، ومُفْتَقَدٌ، ثُمَّ أَنِّي نُفِيتْ
إلى أَبَدٍ كُلَّما شِمْتُهُ تَنَاءَى، وخُلِّفْتُ نِضْوًا بَهِيتْ
وأَظْلَمَ، أَرْخَى السُّدولَ عليَّ، فلمْ أَرَ شَيْئًا كأَنِّي عَمِيتْ
أهَذي النِّهايةُ يا زائِري، أَقُدِّرَ لى الْعَيْشُ في بَطْنِ حُوتْ
بَقِيتَ لأَمْرٍ، وأمَّا أنا فقُلْ لي برَبِّكَ فيمَ بَقِيتْ
وُقِيتُ، وأَحْمَدُهُ أنْ وُقِيتُ، ولكنْ لأيَّةِ جَدْوَى وُقِيتْ
إذا كُنْتُ في كُلِّ يَوْمٍ أَمُوتُ، فقُلْ لي لماذا إذَنْ لا أَمُوتْ
سيُطْبِقُ يَوْمًا، فماذا لَوَ انِّيَ أَسْلَمْتُ سَقْفِيَ للعَنْكَبُوتْ
وفِيمَ الحَيَاةُ إذا طَرَحَتْنِي طُمُوحًا تَوَلَّى، وشَمْلًا شَتِيتْ
كَزِقٍّ رِيَاحٍ، فَلَا أَنَا رَاجٍ، ولا أنا كَافٍ إذا ما رُجِيتْ
لَقًى، ذا يَدَيْنِ، وذا قَدَمَيْنِ، ولَكِنْ لَقًى، كَهَشِيمٍ بَتِيتْ
وَلِيتُ، وهَأَنَذا مُوثَقٌ، يُعَجِّزُنِي القَيْدُ عَمَّا وَلِيتْ
فَيَا نَفَسًا دَاخِلًا خَارِجًا فِيمَ أَنْتَ لَعَمْري إذا ما عَيِيتْ
ويا قَائِلًا إنَّني مُذْنِبٌ خَسَأْتَ، وسُقِّيتَ مما سُقِيتْ
عَلِمْتَ، ولَكِنْ حَسَدْتَ الضِّيَاءَ، وأَغْرَاكَ بِي أَنَّنِي قَدْ رُمِيتْ
أَهَذِي النِّهَايَةُ يا زَائِرِي، أَقُدِّرَ لى الْعَيْشُ في بَطْنِ حُوتْ

أَلَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُ أَنِّي دَبَبْتُ، وأَنِّي أَمِرْتُ وأَنِّي نُهِيتْ
وأَنِّيَ أَمْسَيْتُ أَضْغَاثَ حُلْمٍ، وأَنِّيَ أَصْبَحْتُ بَطْنًا وقُوتْ
وأَنِّي بَكَيْتُ على طِفْلَةٍ بلا سَنَدٍ خُلِّفَتْ، وبُكِيتْ
أَلَمْ يَبْقَ لي غَيْرُ أَنِّي أُحِسُّ بِأَنِّي حُرِمْتُ وأَنِّي ضَنِيتْ
أَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الحَنِينُ، وإِلَّا شَوَارِعُ مَذْكُورَةٌ وبُيُوتْ
أَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ادِّكَارُ مَنَاظِرَ طَيَّ الفَنَاءِ، إِذَنْ قَدذْ فَنِيتْ
وتَبًّا لصَبْرِي إذا ما رَضِيتُ بأَنِّي غُذِيتُ وأَنِّي كُسِيتْ
وأَنْ أَتَقَلَّبَ بَيْنَ رِجَالٍ كَأَعْجَازِ نَخْلٍ، كَدَوْمٍ نَحِيتْ
صَهٍ أَيُّها الواعِظُونَ ودُلُّوا صَدِيًّا على الماءِ، إنِّي صَدِيتْ
حَنَنْتُ لرَضْوَى، وأَوْلَى بكُمْ إذا لَمْ تَشُقُّوا الطَّرِيقَ السُّكُوتْ
أَشِيرُوا عَلَيَّ، ولَكِنْ خُذُوا بيَدَيَّ لأَشْعُرَ أَنِّي رُعِيتْ
وأَمَّا الكَلَامُ الكَلَامُ فَمَحْضُ هَوَاءٍ، وعَنْهُ وعَنْكُمْ غَنِيتْ
إذا لَمْ يُنِلْنِي الدُّعَاءُ الرَّبِيعَ فَفِيمَ إِذَنْ دُعِيَتْ عَشْتَرُوتْ
أَزِيحُوا الطَّنِينَ فَإِنِّي مَشُوقٌ إلى رَكْعَةٍ رُكِعَتْ في قُنُوتْ
دَعُونِي وهَمِّيَ، أَكْبَرُ مِنْ مَوَاعِظِكُمْ هَذِهِ المرْمَرِيتْ
دَعُونِي دَعُونِي إلى خَلْوَتِي، وإنِّيَ فِيها لَفِي مَلَكُوتْ
ورُبَّتَمَا انْفَتَحَتْ كُوَّةٌ، وجَاءَ الحَيَا فَجْأَةً ورَوِيتْ
ورُبَّتَمَا هَبَطَتْ صَهْوَةٌ وطِرْتُ عَلَيْها إلى حَيْثُ شِيتْ

أَهَــذِي النِّهَايــةُ يــا مُفْتِيًــا يُــزَيِّنُ لِي جَاهِــدًا أنْ أَمُــوتْ
ومَــنْ للمَكَــارِمِ، مَــنْ للعَظَــائِمِ، مَــنْ للعِيــالِ إذا مــا بَلِيــتْ
أَهَــذِي النِّهايــةُ، كَــلَّا، وتَبًّــا لهَــذا المَجَــازِ وهَــذِي النُّعُــوتْ
أَهَــذِي النِّهايــةُ، كَــلَّا، صَــهٍ، سَــأَحْيَا، سَأَصْبِرُ مَهْمــا لَقِيــتْ
وما جَدَّ شَيْءٌ، فَلَيْسَ الذي أَصْطَلِي الآنَ أَوْجَعَ مِمَّا صَلِيتْ
سَــأَحْيَا، ستَعْصِمُنِي مِــرَّةٌ تَعَــافُ التَّشَــكِّي، وبَــأْسٌ صَــمُوتْ
سَيَنْفَلِقُ الصَّخْرُ يَوْمًا لِأَخْطُو على غَيْرِ هَذا التُّرَابِ المَقِيتْ
ومــازَالَ، مــازَالَ عَزْمِــي مَعِــي، ولَــيْسَ بضَــاوٍ إذا مــا ضَــوِيتْ
وسَــوْفَ يَــرَانِي غَــدِي مِثْلَمــا رُئِيــتُ، وأَصْــلَبَ ممــا رُئِيــتْ
وسَــوْفَ يَــرَانِي لِــدَرْكِ المَعَــالِي، ولَــيْسَ لِمــا آدَنِي، أَسْــتَمِيتْ
وسَــوْفَ يَــرَانِي ذُوُو الجَبَــرُوتِ، وإنْ كَــاثَرُونِيَ، ذا جَبَــرُوتْ
وإن حُشِــيَ النَّــاسُ قَشًّــا فــإنِّي مَضَــاءً وحَــدًّا وجِــدًّا حُشِــيتْ
بُنِيتُ، فكَيْفَ أُهَدِّمُ نَفْسِي وقَدْ شَابَ دَهْرِيَ حَتَّى بُنِيتْ
ومَــاذا أَقُــولُ إذا عَــاتَبَتْنِي عُيُــونٌ علــى اليَــأْسِ لَمَّــا قَــذِيتْ
وماذا أَقُولُ لرَجْعِ الصَّدَى وهْوَ يَدْوِي: تَخَاذَلْتَ لَمَّا ابْتُلِيتْ
سَأَحْيَا، سَأَحْيَا، سأَحْيَا، لأنَّ هُنالِكَ- تَحْيا- شُجَيْرَةَ تُوتْ
لِأَجْلِكِ رَضْوَى أَبَيْتُ السُّقُوطَ،لِأَجْلِكِ يا أُمَّ رَضْوَى قَوِيتْ
ولَــوْ زَارَنِي بُكْــرَةً كَــرَوَانٌ سَــأُخْبِرُهُ أَنَّــنِي قَــدْ حَيِيــتْ



يا فَاطِمَةُ اعْمَلِي

أَتَانِـيَ أنّ عِيَالِـيَ جَـاعَتْ، فقُلْـتُ: وجَـاعَتْ عِيـالُ العِـراقْ
أَقِلِّـي الأَسَـى أُمَّ رَضْـوَى، دَعيـهِ، فَمَـا فِيـهِ للتَّابِعيـهِ خَـلاقْ
وفـي البَيْـتِ نَافِـذَةٌ، فافْتَحيها، أَخـافُ عَلَيْكُمْ أَذَى الِانْـغِلاقْ
لـذَرْفِ الدُّمُـوعِ، ولكنَّـها لجَـوْبِ المَجَاهِـلِ هَـذِي المـآقْ
حِيَالَـكِ دُنْيَـا، فَسيحِي وجُوسِي، لِكَيْلا يَضِيقَ علينـا الخِنـاقْ
مُـوَطَّـأةٌ، لا لـجُحْـرٍ وضَــبٍّ، ولكَـنْ لِرَاقِيَــةٍ ولِــرَاقْ
ولا تَزْهَـدِي، أَخْطَأَ الوَاعِظُونَكِ، إنَّ انْسِحَابَكِ مِنْها انْسِحاقْ
وَلَابُــدَّ مِــنْ تَعَــبٍ، فاتْعَبِـي، ولَابُــدَّ مِــنْ عَبَــراتٍ تُـراقْ
ولا يَثْنِيَنَّـكِ خَـوْفُ المـوَامِي، وبُعْـدُ المَرَامِـي، وكُثْـرُ المشَـاقْ
فـما نَـحْنُ إلا خِشـاشٌ ودُودٌ، إذا فَـلَّ مِـنْ عَزْمِنـا الِاعْـتِياقْ

حِيَـالَكِ دُنْيَـا، ولكـنْ حَـذَارِ مِـنْ شَبَـكِ الكلمـاتِ الرِّقَـاقْ،
سِيَاسِيَّـةٌ، فاحْـذَرِي كَيْدَهـا، وأَعِـدِّي لَـهُ قَبْـلَ كُـلِّ اتِّفَـاقْ
عَـدُوٌّ لَنَـا مِـنْ قَديـمٍ، جَمـيعًا، جَمـيعًا، عَـدُوٌّ لِيَـوْمِ التَّلاقْ
مُقَــرِّرَةٌ أَنْ نَــذِلَّ لــها، أو نَــزُولَ كمــا زَالَ عَصْــرُ النِّيــاقْ
حِيَالَــكِ نَــارٌ تُعَــدُّ، ونَحْــنُ جَميعًــا يُــرَادُ لَنَـا الِاحْتِــراقْ
لِيُـدْفَنَ تَارِيخُنَـا في البَقِيـعِ، ويَطْـوِي اللَّيَـالِي الخَـوَالِي مَحَـاقْ
حِيَـالَكِ دُنْـيَا فَمُـدِّي المَـدَى، ولَسْـنَا بِشَـيْءٍ إذا هُـوَ ضَـاقْ
إذا كَـانَ جُوعُهُـمُ لا يُطَـاقُ، فَكَـمْ مُنْكَـرٍ حَوْلَنَـا لا يُـطَاقْ
سَـيَأْتِي الطَّعـامُ، فمـاذا لَدَيْـكِ إذا لَـمْ يَعُـدْ شَاغِـلًا الِارْتِـزاقْ
كَفَـى حَزَنًـا، وانْظُـرِي، واغْضَبِي على مَنْ أَجَاعُوا عِيَالَ العِراقْ
وشَـدُّوا عَلَيْنَـا جَميعًـا- فبَكِّـي لِهَـذا إذا مـا بَكَيْـتِ- الوَثـاقْ
كَفَـى حَزَنًـا، وانْظُرِي، واغْضَبِي، أَمَامَكِ- لَوْ تَنْظُرِينَ- الوَهَاقْ
ونَحْـنُ جَمـيعًـا نُسَـاقُ كَأَنَّـا خِـرَافٌ إلـى ذَابِحيـها تُـسَـاقْ
كَفَـى حَزَنًـا، وأَعِـدِّي العِيالَ، لِنَكْسِبَ مِنْ بَعْدِ خُسْرِ السِّباقْ
سُبِقْنَـا، وفي الوُسْـعِ- لا تَسْـمَعِي لِأَغْـرِبَةٍ نَعَقَـتْ غَـاقِ غَـاقْ-
تَـدَارُكُ مـا فَاتَنَـا و اللَّحَـاقُ، وجَـوْبُ المَجَاهِـلِ بَعْـدَ اللَّحَـاقْ
مَتَـى تَلِـدُ الأُمَّهَـاتُ وَلِيـدًا إلـى غَيْـرِ مـا يَمْـلَأُ البَطْـنَ تَـاقْ



رسالةٌ إلى صاحب عاشق

أُنشـدت هـذه القصـيدةُ فى دار العلـوم، واتفـق أن كـان يـومُ إنشـادها موافقًـا لانقضـاء خمسـمئة عـام علـى سـقوط غرناطـة فى 1492م. فقدّمت لها بالكلمة التالية:

في مثـل هـذه الأيـام، قبـل خمسـةِ قـرونٍ، ألقـى آخـرُ ملوكنـا في الأنـدلس نظرتَـه الأخيرةَ على الـوطن الغـارب الـذي ظل في يدنا ثمانيةَ قـرون، غَلَبَهُ الانفعـالُ؛ فبكـى، لكـنَّ أمه كـان لـديها انفعـالٌ مـن نـوع آخر، التفتت إليه قائلة:

اِبْكِ مثل النساء مُلْكًا مُضَاعًا، لـم تحافظ عليه مثلَ الرجالِ

إلى شهدائنا هناك الذين سقطوا في ساح المعارك وشهدائنا الذين ظلوا في مواطنهم بعد آخر معركة؛ ليُذبحوا في بيوتهم أو ليُجبروا على التَّنَصُّر.

إلى أولئك المجبرين على ترك دينهم الـذين كـان أحـدهم يُلَقَّـنُ كلماتِ النصرانية فَيَفْجَأُ القسيسَ بكلمات أخرى: (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله). إلى شهدائنا في الأندلس، وفي كل أندلس قادمة إذا قدر الله، حتى يأذن سبحانه بالفرج، ويجيئنا بالنصر؛ لِيَدْخُلَ خَلْقُهُ في الدين أفواجا.

بانـــتْ سُـــعَادُ فـــلا يـــُتْلِفَنْ فُـــؤادَكَ بيْـــنُ
نريـــدُهُ لِلَيَـــالٍ أَقْسَـــى ، أراهـــا تـــدنو
حَنَّـتْ حنايـاكَ لمـا مضـى مـن الليـل وَهْـنُ
وأنـتَ سـهرانُ تَسْـتَنْطِقُ الخيـالَ ، تُـجَنُّ
فهـل أتـاك حـديثُ الطُّغـاةِ لمـا اطمـأنوا
وقيـل جَـدَّ جديـدٌّ ، وخـالسَ الغيـبَ جِـنٌّ
وكـاد يُلقـي عصـاهُ بعـد التَّـرَحُّلِ كَـوْنُ
كـأنَّ شَمْسَـكَ هَـذِي مـا ذَرَّ منهـا قَـرْنُ
كـأنَّ أَمْسَـكَ دارٌ عَفَـتْ ، ورَسْـمٌ ، ودِمْـنُ
حَنَّـتْ حَنايـاكَ حـتى أَبْـدَى الصبابةَ جَفْـنُ
فهـل أتـاك حـديثُ الجيـاعِ لمـا حَنُّـوا
وأنَّ مـا هَـاجَ تَـحْنَانَهُمْ : دقيـقٌ وسمـنُ
رَمَـى رمـاةٌ فَقُلْنَـا : لا بـأسَ ، شُـنُّوا وشُـنُّوا
وإنمـا قـالَ مِـنْ قَبْـلِ أنْ نقـولَ : الدَّيْـنُ
وإنمـا قـالَ مِـنْ قَبْـلِ أنْ نقـولَ : الجُبْـنُ
سَـنُّوا لَنَـا ، وَلَعَمْـرِي لـو نَرْتَضِـي مـا سَـنُّوا
لسـوف نغـدو هُنُـودًا حُـمْرًا ، خَـلاَكَ الأفْـنُ
يـا صَـاحِ مـا جَـدَّ شـيءٌ ، وإنمـا جَـدَّ مَـيْنُ

سَيَدْفَـعُ النـاسَ نـاسٌ ، وغيـرُ ذلـك دَهْـنُ
ومنــذُ كــان زمــانٌ والنــاسُ ذئــبٌ وضــأنُ
ولــن يــزولَ مــن الأرض عَدْلُهُــمْ والغَبْــنُ
إلَّا إذا جــاءَ كُــلَّ الــذي عليهــا الحَــيْنُ
أمَّــا لمــاذا؟ ، فَشُــغْلِي بــِذَا وشُــغْلُكَ وَهْــنُ
والخَيْـرُ عنـد المـوَاضِي ، عنـد العَـوَالِي تُسَـنُّ
لِيَجْـرِيَ الــدمُ نَــهْرًا ، أَوْ يَتَّقِينــا الطَّعْــنُ
الخَيْــرُ شَمْــلٌ ولَــمٌّ ، ومَهْــيَعٌ مُسْتَسَــنُّ
وأنـتَ في الأصـل جُزْءٌ ، مـاءٌ وصُلبٌ وهَـنُّ
أبٌ ، ولكنَّــكَ ابْــنٌ ، وجَــدُّ أجـدادكَ ابْــنُ
مَــالِي رَأيتُــكَ تُنْمَــى فَيَفْجَــأُ الحَبْــلَ خَتْــنُ
وهَــلْ يُقــالُ لِغُصْــنٍ أَهْوَتْــهُ فَــأْسٌ غُصْــنُ
تَــمَيَّزَ النّــاسُ فــانظرْ مَــنْ في الخلائــقِ نَحْــنُ
حَـالَ الزّمـانُ وحُلْنـا ، والعَـيْشُ صَفْـوٌ وأَجْـنُ
قــد جَمَّعَتْنــا بَــوَادٍ ، وفرَّقَتْــنا مُــدْنُ
كانــتْ قُرَيْشُــكَ أُمًّــا ، فَــأَيْنَ ذَاكَ الحِضْــنُ
أَتَــى سَمَرْقَنْـدَ فَـخْذٌ ، وحَـلَّ طَنْجَـةَ بَطْـنُ
ثُمَّ انْتَهَيْنَــا كــأنَّ الرِّجَــالَ في الــرِّيحِ تِــبْنُ

ولـيس هــذا بِــرَأْيٍ ، الــرَّأْيُ أَنْــفٌ يَصِــنُّ
وَأَنْ تُفَــدِّيَ خِدْنــًا ، وَأَنْ يُــفَدِّيكَ خِــدْنُ
صَــدَّ العَوَاصِــفَ دَوْحٌ ، وَوَاجَــهَ القِــرْنَ قِــرْنُ
وَالخَيْــرُ شَمْــلٌ ولَـــمٌّ ، وَقِبْلَتَـــانِ ، ورُكْـــنُ
فَصُــمْ وصَـلِّ ، وَأَحْــرِمْ ، وَلْيَــمْحُ رَيْـبَكَ يَقْــنُ
وَاكْفُــرْ إذا شِــئْتَ لَكِــنْ محمــدٌ لا يُـــزَنُّ
لَــوْ زَالَ ؛ زَالَ عــن البَــرِّ والغَــوِيِّ الــمِجَنُّ
ياصَــاحِ حَــالَ زمــانٌ ، وغَافَلَتْنَــا السِّـــنُّ
فَـــأَيْنَ أَنـــتَ وأَيْـــنِي فِي العَـــالَمينَ ونَحْـــنُ
رَأَى بَيَــاضُ النَّصــارى أنَّ الخَسَاسَـــةَ لَـــوْنُ
وأنَّ حِـــبْرِي لِأَنِّي لِلْوَاحِـــدِ الفَـــرْدِ أَعْنُـــو
ذَنْــبٌ يُــعَاقَبُ فِيــهِ طِفْــلٌ وشَـيْخٌ مُسِــنُّ
فكيــف يَطْلُــعُ يــومٌ تَضُــمُّنا فيــهِ عَــدْنُ
وكيــف يَجْــزِي هَــوَانَ المــُهَانِ سَــلْوَى ومَــنُّ
مــتى رأيــتَ حِــذَاءً علــى تُــرابٍ يــَحْنُو
حَـــالَ الزَّمَـــانُ ، وَقَــدْ آنَ للشَّـــهَادَةِ أَيْـــنُ
فـــلا تُكَـــنِّ إذا قالــت الكرابــيجُ : كَنُّـــوا
وَإِنْ يَــخُنْكَ مَلِيــكٌ فَقُــلْ : أَجَــلْ هُــوَ خَــوْنُ

أَوْ قِيلَ : عَهْدٌ جديدٌ ، فَقُلْ : دُجَىً ودُجُنُّ
وَكَالشَّمَالِ جَنُوبٌ لَوْ أَضْمَرَ الشَّرَّ جَوْنُ
يا صَاحِ غَنَّتْ قِيَانٌ لِكَيْ يُرَاخِيكَ لَحْنُ
فلا يُشِعْ فِيكَ أَمْنًا ذاكَ الخَرِيرُ الأَغَنُّ
ولا يُشِعْ فِيكَ أَمْنًا فى البَرْدِ صُوفٌ وقُطْنُ
ولا يُشِعْ فِيكَ أَمْنًا كَأْسٌ ، ونُقْلٌ ، وكِنُّ
رَمَى رُماةٌ فَولَّى لَمَّا ذَلَلْنَا الأَمْنُ
والأمرُ للهِ ، يَكْبو الجَوادُ وَهْوَ رِفَنُّ
وإنْ أُحِمَّ قضاءٌ ، فليس للخلق إِذْنُ
بانتْ سُعَادُ ، وباتتْ بَغْدادُ وَهْيَ تَئِنُّ
عَنَّاكَ حُبٌّ وعَنَّى رَبَّ العِراقَيْنِ ضِغْنُ
وبَيْنَ حُرٍّ وعَبْدٍ – يا ابْنَ الأَعِزَّةِ – بَوْنُ
خَلاَكَ ذَمٌّ ، يَذِيمُ الرِّجَالَ أَنْ يَرْفَئِنُّوا
وَهُمْ يَرَوْنَ عَدُوًّا في ذَبْحِهِمْ يَفْتَنُّ
تَبْدو السَّكَاكِينُ حِينًا ، وحِينَةً تستَجِنُّ
أَبْلِغْ سُعَادَكَ أَنَّ السَّرِيرَ قَيْدٌ وسِجْنُ
أَنَّا وُجِدْنا لِمَعْنًى غَبَاهُ فَرْجٌ وبَطْنُ
أَنَّ النَّوَافِذَ وَعْدٌ ، جَنًى تُوَالِيهِ أَجْنُ

شُقَّتْ فِجَاجٌ ، فهذا سَهْلٌ ، وذَلِكَ حَزْنُ
لِيَسْتَثِيرَ خَيَالَ الوِدْيانِ قُنٌّ ورَعْنُ
وغَيْمَةٌ كَنَدِيفٍ شَفَّتْ ، وأخرى دَجْنُ
شُقَّتْ فِجَاجٌ لِيَجْتَازَ ظاعِنُون وظُعْنُ
وتَمْخُرَ البرَّ والبحرَ والسمواتِ سُفْنُ
وتَخْتَفِي بِطُيورٍ غِبَّ الجُهَيْدَى وُكْنُ
يا صَاحِ غَنَّتْ قِيَانٌ لِيَسْتَمِيلَكَ مَجْنُ
وعَلَّمَ البنتَ درسًا في كيف تَعْرَى تِقْنُ
والرَّقْصُ إنْ كانَ فنًّا فَصَوْنُ عِرْضِكَ فَنُّ
وَلَدْتَ لِلْعَارِ بِنْتًا لِغَيْرِ حِلٍّ تَزْنُو
أَبْلِغْ سُعَادَكَ أَنَّ العَفَافَ أَيْضًا حُسْنُ
دَعَاكَ في شَفَتَيْهَا ، وَوَجْنَتَيْهَا ، دُهْنُ
وسوف يَبْقَى طِبَاقٌ ، مَهْمَا اسْتَفَاضَ الرَّيْنُ
حَتَّى القِيَامَةِ ، يَبْقَى زَيْنٌ ، ويَبْقَى شَيْنُ
أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاةٍ لم يُغْوِهِنَّ الرَّطْنُ
ولا تَخَاضَعْنَ كَيْ يَسْتَبِيكَ جَرْسٌ لَيْنُ
ولا تَثَنَّى إذا ما سِرْنَ القَوَامُ اللَّدْنُ
يا صَاحِ حَالَ زمانٌ ، وغَافَلَتْنَا السِّنُّ

وراحَ يُـذْوِي لِأَمْـرٍ وَجْهِـي ووَجْهَـكَ غَضْـنُ
فـلا تَشَـكَّ ، تَـدَنَّ حُـزْنٌ ، وأَشْـرَفَ حُـزْنُ
بِنَـاءُ فِرْعَـوْنَ ذَرٌّ ، وطُـورُ سِـينِينَ عِهْـنُ
ولـيس إلَّا سَدِيمـًا خَصْـرٌ ، ونَـهْدٌ ، وعَيْـنُ
فَاسْتَمْسِـكَنَّ إلى أَنْ يَضِـيقَ بالمـاءِ شَـنُّ
لَسْـنا الـذين حُشـينا قَشًّـا ، وَإِنْ رُضَّ مَتْـنُ
لَسْـنا زِقَـاقَ ريـاحٍ ، لَسْـنَا ذُبَابًـا يَـدِنُّ
وَإنْ يكـنْ لَـكَ أمسٌ ، ففـي غـدٍ لَـكَ شَأْنُ
نَحْـنُ الـذين إذا مـا دعـا الـرَّدى مـا ضَـنُّوا
صَـلَّوْا وصَـامُوا ، وَلَكِـنْ عند الكريـهةِ جُنُّـوا
سَـاقَتْ لَنَـا حَيْـثُ تَهْمِـي خَرَاجَـهُنَّ المـُزْنُ
إنِّي لَمَحْـتُ جَنينًـا تَحـتَ الرَّمـادِ يَـعِنُّ
اسـمٌ وفعـلٌ وحـرفٌ، ولَـنْ يُجَبَّـكَ لُكْـنُ
والنُّبْـلُ صَـعْبٌ فَأَيَّـانَ تَسْـتَقِيمُ اللُّسْـنُ
يا صَاحِ أَحْسِنْ ، فَبُغْيَا الكَمَالِ فرضٌ عَيْنُ
ولا تُهَـوِّنْ مَقَـالَ الخَلِيـلِ : خَبْـلٌ ، وخَـبْنُ
العَبْقَرِيَّـةُ وَحْـيٌ ، والعَبْقَرِيَّـةُ وَزْنُ



مناجاةٌ للمتنبّي

أيُّـهـا الـحـالـمُ العظيـمُ تذكَّرْتُـكَ لَمَّـا لَـمْ أَلْـفِ حـولـيَ خِـلّا
هَـبطَ الليـلُ، أيـنَ مِنّـي بَـوَادٍ جُزْتَـها كالشـهـابِ يا نـجمُ لَيْـلَا
مـا الّـذي كنـتَ تبتغي؟ ما خَبِيـئٌ أبَـت النـائبـاتُ أنْ يتجلَّى
هَبَـطَ الليـلُ فـادَّكَـرْتُـكَ أمْسـًا قـيـلَ: وَلَّـى، وقلتُ: لـمْ يتولّـى
وأنَـا مُـهـمـلٌ كـزِقٍّ ريـاحٍ، ليـس عِنـدي إلا "عسـى" و"لَـعَـلَّا"
وَلَـوَ انَّ الأحـجـارَ تعقـلُ فجَّـتْ فجـوةً في الـجـدارِ كيْ أتدلّـى

لِتُلاقِي خَيْلِي ورَجْلِي– وقدْ عاد إلينا التتارُ – خيْلًا ورَجْلا
أَفَهاذٍ أنا؟! تقولُ قوافيكَ لمنْ آثروا السلامةَ: كلّا
ضلَّ باغي النَّجاةِ بالجبُنْ ضَلَّ؛ كلُّنا في نهايةِ الشوطِ قَتْلى
هبطَ الليلُ فادَّكَرْتُ بلادِي، ولسانِي، وخَنجرًا مُسْتلّا
يستعينُ الدُّجى لِيَبْقُرَ عَمْدًا أُمّةً بالكواكبِ الزُّهْرِ حُبْلَى
خَدَعتْها ريحُ الشَّمالِ فباتتْ في الهواء العليلِ تَنْشَقُ سُلّا
قطعةً قطعةً تخورُ قُواها، أَيِّمًا حِينةً، وحينًا ثَكْلى
شَغَلتْها عن المصيرِ أهازِيجُ، وسوقٌ تضِجُّ زمْرًا وطبْلا
ورجالٌ صَلّتْ وصامتْ وقالتْ – في طُمأْنينةٍ – وَجَدْنا الحلَّا
قلتُ: هَاكُمْ كتابَنَا فاقْرؤوهُ، إنما البِرُّ أنْ تكونوا أعْلَى
هبطَ الليلُ، بَيْدَ أنّ صباحًا في قوافيكَ لا يزالُ مُطِلّا
وسَيَنْداحُ – أَنْبأتْنِي ضُلوعي أنْ سَيَنْداحُ في ضحًى لا يَبْلىَ



مناجاةٌ لعبد اللطيف

رحم اللهُ أبا همّام، أما بعد،

فعندي قبل البدء تنبيهانِ يخصّانِ القصيدة. الأول أني استوحيت أبياتًا أربعةً وقعتُ عليها و أنا أقلّب حماسة أبي تمامٍ لمن دعاها "صفيّةَ الباهليةَ" ترثي أخاها الوحيدَ أو الواحدَ كما قالت.

تقول:

كُنا كغصنين في جُرْثُومةٍ سمقَا حينًا بأحسنِ ما يسمو له الشجرُ[1]
حتى إذا قيل قد طالت فروعُهما، وطاب فيئآهما، واستُنظر الثّمرُ
أَخْنَى على واحدى ريبُ الزمان، وما يُبقى الزمانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ
كنا كأنجمِ ليلٍ بينها قمرٌ يجلو الدّجَى فهوَى من بيننا القمرُ

والبيتُ المستوحى هو الثالث : أخنى على واحدى، ووجه الشبه أن صاحبي كان عندي كأنه أخ وحيد. أما التنبيهُ الآخر فهو كلمة جاءت في البيت الأول من مناجاتي للراحل العزيز، ربما احتاجت إلى بيان. أقول: "قُلْ للنفاةِ خسأْتم".والنفاة جمعُ نافٍ، وهُم نفاة القَدَر، وهم الفرقة الشهيرة المعروفةُ في تاريخ علم الكلام باسم "المعتزلة" أو "الجهمية" أحيانًا. والمُسَلَّم عند أهل الملّة أن ما ذهبوا إليه باطل بلا ريب.

---

(1) في جرثومةٍ : في أصْل شجرة. وسَمَقَا : ارتفعا.

قُلْ للنُّفاةِ خَسَأْتُمْ؛ طاب مُرْتَحَلِي، وفَوْقَ كلِّ جهولٍ منكمُ القَدَرُ
ولمْ أزُلْ، زال قيدٌ راسفٌ أبدًا فيهِ، على رغْمِ كلٍّ منهمُ البَشَرُ
ولم أزُلْ، زال وِقْرٌ آدَنى زمنًا وانزاحَ، فانزاحَ عني الويْلُ والوَضَرُ
وطاب مُرْتبَعي، حوْلي هنا شجرٌ، حوْلي هنا خضِرٌ، حوْلي هنا زَهَرُ
وباسقاتٌ إذا ما شئتُ طيّعةٌ، فلو رغبتُ ادّنَى مِن كفّيَ الثمرُ
هنا فواكهُ أنواعٌ، و مُتّكأٌ، و إنْ نشأْ نُصِبتْ مِن تحتنا سُرُرُ
هنا رياحينُ أنواعٌ، هنا أرَجٌ، يَضُوعُ مِن حيثُ لا يُدْرَي وينتشرُ
هنا كذلك غاباتٌ، هنا دَغَلٌ– لكنْ أمينٌ - هنا ضالٌ، هنا سَمُرُ
وطارَ طيرٌ هنا، لا يشتكي سَغَبًا، واستقبلتْه حَفِيَّاتٍ بهِ وُكُرُ
أرى كذلك حوْلي ها هنا نُهُرًا، تهتزُّ، تخضَرُّ في أثباجِها جُزُرُ
ومُجْملُ القولِ أنْ لا شيءَ عندكمُ إلا – هُنَا – هُوَ خيْرٌ، وَهْوَ مُبتكَرُ
فاستغفروا اللهَ، ذا خيرٌ لكمْ أبدًا مِن أنْ يُزَيِّنَ ماجئتمْ به البَطَرُ
نقولُ جِئْنا ورُحْنا لا المجيءُ بنا ولا الرَّواحُ، ففيمَ الكِذْبُ و الأَشَرُ
وفيمَ يَزْعمُ زَعَّامونَ أنهمُ– مِن بَعْدِ هذا – حيارَى، ضَلَّةً نَظروا
النّفيُ إن كان نفيًا مطلقًا سَفَهٌ، و الشكُّ عَجْزٌ، بهذا تَحكمُ الفِطَرُ
أستغفرُ اللهَ، إن الأمرَ قاطبةً للهِ، فَلْيَدَّكِرْ– إنْ شاءَ– مُدَّكِرُ
عبدَ اللطيفِ كأنْكَ الآن تسمعني، كذا الحديثُ، فلايَسْتغرِبَنْ عُمَرُ
أحسنتَ؛ قال أناسٌ لا يناسبُنا شِعرٌ نَمَتْهُ الفَلا والأُتْنُ والبَعَرُ

وقلتَ: يُبْطِل فِعْلُ الدهرِ زَعْمَكمُ، فما تخلّفَ عن إيقاعِهِ عُصُرُ
الشعرُ مِن نفَسِ الرحمنِ مُقتبَسٌ، له على ما سواهُ السّبْقُ والصَّدَرُ
أمّا الزمانُ فذا حَشْوٌ، حوادثُهُ كأنها لِنسيجِ الناسجِ الوَبَرُ
وإنما اهتَزَّ مِن قبْل اهتزازتِهِ— في عالمِ الغيبِ قبْل الواقعِ— الوَتَرُ
مستفعلنْ فاعلنْ مستفعلن فعلنْ، لحنٌ من الملأِ العُلْوِيِّ ينحدرُ
أصْلٌ، يغورُ بعيدًا، راسخًا أبدًا، وليس رَهْوًا بأدْنى الهَبِّ ينتثرُ
وهلْ بَنَى قطُّ بانٍ غيرَ مُفْتَكِرٍ، إذَنْ فذاك بلا ريبٍ هو الهَدَرُ
أحسنتَ؛ قال أناسٌ مُلِّئُوا حَنَقًا، كأنهمْ في عزيزٍ عندهمْ وُتِرُوا
عروضُنا عسِرٌ، ونحوُنا عسِرٌ، وصَرْفُنا عسِرٌ، ودينُنا عسِرُ
وقلتَ: ماذا إذَنْ يَبْقَى، لَقولُكُمُ هذا هو الباطلُ البَوَاحُ والنُّكُرُ
لا كانَ— إنْ كان مَبْغاكمْ تَنَكُّرَكُمْ لِلوحْيِ، أو لِلسانِي — ذلك اليَسَرُ
أحسنتَ؛ قال أناسٌ: ليس يُنهضُنا ماضٍ تَوَلَّى، غريبُ الوجهِ، مندثِرُ
وقلتَ: أَسْرفْتُمُ، بل سوف يُنهضُنا، وسوف يُنهضُنا، أن يُقتفى الأَثَرُ
أحسنتَ؛ قال أناسٌ: فوقَ مُكْنَتِنَا مِنْ بَعْدِ مُكْنَتِهِ أنْ يُدْرأَ الخطَرُ
وقلتَ: بلْ لم يزَلْ في طوْقِنا عملٌ، وسوف ينفي الرَّزايا فتيةٌ صَبَروا
لهمْ بغَيْرِ المخازِي والخَنَا شُغُلٌ، وَرَاقَهُمْ في سبيل العِزَّةِ السَّهَرُ
عبدَ اللطيفِ وأنت الآنَ تَعلمُ ما يَنْفي الشكوكَ، وما عَيَّتْ به الفِكَرُ
أمُرسِلٌ أنت للضُّلّالِ قافيةً، تقولُ للناسِ لا تَغرُرْكُمُ الصُّوَرُ

فما نهارٌ وما ليلٌ، وما فَلَكٌ، وما سديمٌ، وما شمسٌ، وما قمَرُ
وما حصاةٌ، وما رَمْلٌ، وما جَبَلٌ، وما سماءٌ، وما أرضٌ، وما مَطَرُ
مَنْ قال أَعْلمُ غِرٌّ، عند خالقِنا — وليس عند سواهُ— الخُبْرُوالخَبَرُ
فسَرِّحوا الطَّرْفَ في الموتى الأُلى غَبَروا، كم غَيْرِكُمْ، وكأيِّنْ قبْلكمْ سُحِروا
أمُرسِلٌ أنت للأعراب قافيةً تقول كُفّوا، عسى إنْ ذُكِّروا ازْدَجروا
المالُ للهِ، لا للمترفين، ولا للظالمين، فلا يَعْلُوا ويفتخروا
أَمُذْكِرٌ أنت أهلَ الغرْبِ أنهمُ،و إنْ سما عِلمُهمْ جدًّا، وإنْ نُصِروا
بَغَوْا، وأنّ لديْنا مثلَما مَكَروا مكْرًا، فلا يُعْجِبَنْهُمْ أنهم قَدَرُوا
وأنه إنْ يكنْ فينا الأُلَى خَنَعوا، فثَمَّ شُمْسٌ أُباةٌ غيرُهُمْ غُيُرُ
شُمٌّ دُهاةٌ رُماةٌ قال قائلهُم، لَمّا استحرَّ الأذى، واستفحل الضّررُ
وعندما بَلَغَ السّيلُ الزُّبَى، وطغَى فوق الزُّبى، وطَغَى واسْتوحشَ التّترُ
وبان أن الحوارَ المُدّعَى عَبَثٌ، وأنّ داءً قديمًا لم يَزَلْ يغِرُ
و أنّ كلَّ مَرامِ الغربِ ذِلَّتُنَا، شيئًا فشيئًا، وأنَّ الوَغْرَ يتّغِرُ
وَيْلُمِّها خُطَّةً، وَيْلُمِّ قَابِلِها، لمثلِها خُلِقَ الصَّمْصامَةُ الذَّكَرُ
وإنّ بطنَ الثَّرى أوْلى بِمُمْتَحَنٍ، مِنْ أن يَدِبَّ عليهِ وَهْوَ مُحتقَرُ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائف في متونهنَّ لأهلِ الملةِ الوَزَرُ
أمّا التهافتُ إيثارًا لعافيةٍ، فذاك واللهِ رأيٌ طاش مُبْتَسَرُ
وذاك أنّا انتقلْنا من أذًى لأذًى، إذا نَأَى خُسُرٌ أَلْوَى بنا خُسُرُ

فَلتخْسأ الحكمةُ العرجاءُ، كم حِكمٍ أَتَتْ علينا مُنيخًا فوقنا الصِّغَرُ
عبدَ اللطيفِ كأنْك الآن تسمعُني، لا تبتئسْ، إنني ما زلتُ أصطبرُ
إني أَرَى ظَفَرًا في الغَيْبِ مُرتقِبًا جيلًا جديرًا بأنْ يُمْنَى له الظَّفَرُ
لكنْ يحُزُّبنفسي أنْ تفارقَني، وأنت نَدْبٌ، شديدُ البأس، مبتدِرُ
هلْ متَّ، قال اليقينُ المرُّ، قال، نَعَمْ، وكلُّ وُدٍّ سيعرو حَبْلَه بَتَرُ
كُلُّ ابنِ أنثى، وإنْ طالت سلامتُه، يومًا سيكسُوه مِنْ بعد الكَسَا غَبَرُ
لكنْ يحُزّ بنفسي أنْ أجيئَ إلى دار العلومِ فلا أُلْفِيكَ تنتظرُ
قد كنتُ أحسَبُ أنّ الموتَ ينزلُ بي مِنْ قبلُ، لمّا دَهَتْ أيامِيَ الغِيَرُ
وعندما بانَ جدًّا أنني شَبَحٌ يريدُ ينقضُّ،أوْهَي عَظْمَه الكِبَرُ
تعاورتْهُ خطوبٌ لا علاجَ لها، و طالَ في غيرِ شيءٍ ينفعُ العُمُرُ
وقلتُ إنّ لقاءَ اللهِ أَرْوَحُ لي، وهانَ لحدٌ مُجِيفٌ بابَهُ حَجَرُ
وقلتُ مَنْ ذاكِرٌ إيّايَ حينئذٍ، والناسُ ترضيهمُ الذكرى إذا ذُكِرُوا
وقلتُ يَنْظمُ مَرْثاتي أخو ثقةٍ، نَدْبٌ، بصيرٌ بفنّ الشعر، مقتدرُ
أخْنَى عَلَى واحدي ريْبُ الزمانِ، وما يُبْقى الزمانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ
إنْ أنْسَ لا أنْسَ عينيْكَ اللتين هما، ككُل عينيْن، سِرٌّ، دَقَّ، مُطّمِرُ
إنْ أنْسَ لا أنْسَ لمّا جَفّ ماؤُهما، وقالَ ما قالَ في مُوقَيْهِمَا النّظرُ
هذا الوداعُ، ولن ألقاكَ ثانيةً، حَلَّ الذي ما وَقَى مِنْ حَلِّهِ حَذَرُ
جَرَرْتُ ساقيَّ نحو الباب يُثقلُني عَجْزي، كَأنِّيَ جيشٌ راح يندحِرُ

وليس مِنْ شيمتي أنْ لا أخِفَّ إلي عَوْنِ الصديقِ، ولا مِن شيمتي الخَوَرُ
ودِدتُ لو كنتُ مسطيعًا، وهل أحَدٌ قبْلي أعَانَ مريضًا وَهْوَ يُحتضَرُ
وليس مِن ديدني أنْ أستكينَ إلى دمْعٍ لأجْلِ قضاءِ الهَمِّ ينهمِرُ
لكنني بشَرٌ، واللهُ يَعْذِرُني إنْ شاءَ، وَهْوَ إذا ما شاء مُغتفِرُ
فَلْتَذْرِف العينُ، وَلْتبكي فجيعتَها رفيقةٌ صَبَرَتْ، ما عابها ضَجَرُ
وَاهَا وَأَوْهِ، وَوَاهَا أَوْهِ، واحَرَبا مِنْ لوعةِ الفقْدِ، شيءٌ فيَّ ينكسِرُ

❋ ❋ ❋

إلى أُمٍّ مِن لُبنان

رأيتُهـــا فى مســاءٍ، يَهْــوَى خيــالىَ ذِكْــرَهْ
بسّـــامةً تَنْثُـــر العطـــفَ حولَهـــا والمســـرّه
رأيـــــتُ شـــــاعرةً فى عيونِهـــــا مُسْتسِـــــرّه
أصـغتْ إلىَّ فكانــت تصـغى إلى كــلِّ نَــبْره
شــربتُ مِــن ناظريْهــا شُــربَ المريــد الــمُكْره
كانــا يقــولان أحســنتَ، نظــرةً بَعْــدَ نظــره
فــراحَ يهمــسُ قلــبى، تضــوّعى يــا زَهْــرَه
إنْ ســـافرتْ لم يســـافرْ عبيرُهـــا والخُضـــره
أَحببــتُ لُبنــانَ لــمّا شممــتُ فيهــا عِطــره
غَنَّـــتْ فقلـــتُ تغـــنَّىْ، إنّ الســـعادة قُـــدْره
كــأسٌ ســتفرُغُ يومًــا، فــلا تُضِــيعى قَطْــره
ولا تَضِـــنِّى عليْنـــا، مـــا فى الـــوِداد مَضـــرّه
ولا تخـــافى اقـــترابى، يـــا أمُّ، إنىِّ فِكـــره
تحيـــةً فى نظـــيمٍ، يَـــدْرى العليمـــون قَـــدْره
إليكِهـــا، أمَـــرَ الحســـنُ، كيـــف أعْصِـــى أمْـــرَه
مِن صاحبٍ لك باقٍ، أهْدَى إلى الحبّ عُمره
لـــو أمكنتْـــه الليـــالى أحـــبّ ســـبعين مـــره



حوار

رأيــتُ الخيانــةَ تُقْبــل نَحْــوى
فقــال دمِــى كلُّــه: لا ســلامْ

وَفَحّــتْ ثعابينُهــا فى الجِـرابِ:
إلامَ صـــــدودُكَ هـــــذا، إلامْ

وقــد جئـتُ فَرَّاجـةً لكـروبٍ،
وأنــت الــمُدَمَّى، فكيــف أُلامْ

أيـا غِــرُّ لا تبْـك حــاءً وبـاءً،
لدَىَّ – إذا شئتَ – حاءٌ ولامْ

إذا لم تُفِـــدْكَ التجـــارِبُ ألّا
تبـالى، فيـا شـيخُ أنـت الغـلامْ

وأنــتَ – إذا أسْـعَفَتْ حيلـةٌ
ولم تَرْتكبْهــا – رهــينُ احــتلامْ

فقلتُ: خسَأْتِ، وإنْ أرهقتنى

وطالتْ علىَّ صنوفُ الكِلامْ

أمِنْ بَعْدِ خمسينَ يطلُعُ صُبحٌ

علىَّ يغشّيه هذا الظلامْ؟

لأنتِ العدوُّ، خَسَأْتِ،

ولو دارَ بَيْنى وبينكِ يومًا كَلامْ



وَجَدَّ زَمَانٌ

امْـــضِ إلى حيـــثُ تَـــرَى قـــاربى؛
الحبـــلُ مـــتروكٌ علـــى الغـــاربِ

جَـــدَّ زمـــانٌ، فـــافْهمَنْ حُكْمـــهُ
عَـــضَّ علـــى الجاســـرِ والهائـــبِ

وخَـــــلِّ جَنْبَيْـــــكَ لِـــــرامٍ إذا
كَشَّـــر، تَـــأْمَنْ شِـــرَّةَ الضـــاربِ

يَكْفيـــــكَ إنْ يُـــــرْغِ ويُزْبِـــــدْ
رِضَى الريحِ، ومَوْجٌ ليس بالغاضبِ

لا تَشْـــغَل البـــالَ بمـــاضٍ مَضَـــى،
ولا بـــــآتٍ مِثْلِـــــه ذاهـــــبِ

تَرَقـــرقَ المـــــاءُ، وفى جُعبـــــتى
خُبْـــزٌ، ودَنٌّ لـــيس بالناضِـــبِ

وذا شـــريطٌ، لا يَمَـــلُّ الـــــذى
يُصـــغِى إلى سلســـالِه الخالـــبِ

لَسَـــوْفَ يصـــطادُكَ، حـــتى إذا
دَخَلْـتَ فى نومِـكَ يـا صـاحبى

فـــاغْنَمْ مـــن الحاضـــرِ لَذَّاتِـــه،
قَبْـلَ حضـورِ الحَـنَشِ الغائـبِ

وســـوف تـــأتِى لـــك شَـــبَّابتى
– إذا انتشتْ – بالعَجَبِ العاجِبِ

سَـــجَت ليالينـــا، وطـــابَ الخَـــلا
للآكِـــلِ التّـــيْسِ، وللشّـــاربِ

ســـجَتْ ليالينـــا، وَطـــابَ الهـــوى
للمُخْمَـــلِ المركـــوبِ والراكـــبِ

ونَحْـــن للحـــبّ خُلِقْنـــا، فـــلا
تُبَـــالِ إلا بلَمَـــى كاعـــبِ

والشَّـــعْبُ مبســـوطٌ، فـــلا تَلْقَـــهُ
لقَـــاءَ مكـــروبٍ ولا كـــاربِ

راضَـــــتْهُ أنيـــــابٌ حريريّـــــةٌ
دهـــرًا، فأمْسَـــى لَـــيِّنَ الجانـــبِ

والحَرْبُ – فيمَ الحربُ – أصْلُ الأذَى،
وشُـــغْلَةُ الناهـــبِ والغاصـــبِ

شمْطـــاءُ – لـــو شَـــبَّهْتَ – مكروهـــةٌ
للشَّـــمِّ – واســـألْ جبهـــةَ القاطـــبِ

رثَيْـــــتُ للبـــــاكى ومبْكِيِّـــــهِ،
رثيـــتُ للظـــامِئِ والســـاغبِ

فخَـــفْ علـــى جِلْـــدِكِ، لا تَنْضَـــهُ
ســـالبةُ المســـلوبِ والسّـــالبِ

يُنْبِيــــكَ مــــيراثُ قــــرونٍ خَلَــــتْ
أَنّــــا - بحُكْـــم اللهِ - للغالــــبِ

فــــاغْنَمْ مــــن الحاضـــرِ لذَّاتِــــهِ،
واعْـرِفْ جميـلَ الـمُحْسنِ الواهـبِ

ولا تَشَــــــاءَمْ أبــــدًا بالــــذى
يَجْــرى، ولــوْ لمْ يَــكُ بالصــائبِ

وإنْ دنـــا منـــكَ غـــرابٌ، فـــلا
تَسْــمَعْ لِغــاقِ الأســودِ الناعــبِ

وإنْ تَـــــوَلَّى قمـــــرٌ فـــــانتظرْ
يومًـــا طلـــوعَ القمـــرِ الآيـــبِ

لــيس مــن الحكمــةِ غَشْــىُ الأُلَى
قــدْ أَرْغــدوا، فى منظــرٍ شــاحبِ

هــذا زمــانُ الظَّــرْفِ، فــافْهَمْ تَلِـجْ،
أَوْ لا فواجِـــهْ نكَـــدَ الحاجـــبِ

* * *

أَسْــرفتُ فى التعــريض يــا صــاحبى،
فلْنَـــدَعِ الأَلْـــوَى إلى لاحِـــبِ

أسرفتُ فى السُّخرِ، وما ينبغى
أن يَسْخَرَ اللاغبُ مِن لاغِبِ

حُدِّثْتُ عن نَجْمٍ دفينِ السّنا
حديثَ لا لاهٍ ولا كاذبِ:

أنَّ الذى غالَ أَمانِيَّنا
قصائدُ الهازئِ والنادبِ

لا تُرْتَجَى الصَّوْلةُ مِن قاعدٍ،
يستَسْهِلُ النَّوْحَ، ولا لاعبِ

وربما أَزْرَى بآلامنا
تَصَنُّعُ الشاعرِ والكاتبِ

وكلّما اشتدَّتْ تباريحُنا
كان التّحدِّى أَوْجَبَ الواجبِ

ولو غدا المنطقُ أُحْجِيَّةً،
لَأَفْلَتَ الضَّرْعُ مِن الحالبِ

إن كنتَ صَدَّقْتَ الذى قلْتُه،
فأنتَ فى طَفْوِكَ كالرّاسبِ

وأنتَ فى الغفلةِ مستغرِقٌ
بالطَّوْعِ، كالشيعيِّ والناصِبِ

وكالأُلَى دانُوا لِخُرَّابِهم،
وقد بَدَا جدًّا هَوَى الخارِبِ

أو كُنْتَ لم تَعْمَ عمانا فسَلْ
أيْنَ مَثَاوِى مَجْدِنا الغارِبِ
ولا تحاورْنى حوارَ الذى
يَهِيمُ كالعشواءِ فى جادِبِ
فلا رَأَى المخرجَ منه، ولا
صادَفَ عُشبًا فى ثَرًى عاشِبِ
جراحُنا أغْوَر من مِبْضعٍ
فى يَدِ لا دارٍ ولا دارِبِ
والحلُّ موجودٌ، ولكنَّه
تحتَ ضروسِ الضَّيْغمِ الواثبِ
يا خاطِبَ العِزَّةِ ما أُمْهِرَتْ
يومًا سوى القَضَّابةِ القاضِبِ
لا تَعْذِلَنِّى أنَّ لى شاربًا
لَمْ يُحْفَ، أو أنى بلا شاربِ
الدينُ بيداءٌ، فأوغِلْ، ولا
تُمْسِ بجَوْفِ الليلِ كالحاطبِ
ليس الجلابيبَ التى قُصِّرَتْ،
ولا لِحًى كالأملِ الخائبِ
للبيتِ ربٌّ، فمتَى ينتخِى
لِيُرجِعَ النّوقَ أبو طالبِ

لَعِفْـــتُ أنْ أحْيـــا حيـــاتى لَقـــىً
ينقـــــادُ للـــــدافعِ والجـــــاذبِ

فاكْـــذِبْ علـــى غـــيرىَ يـــا ســـاهرًا
للصـــبحِ فى مـــاخورِه الصـــاخبِ

بَرِئْـــــــتُ لـــــــو أنَّ مَـــــــذَايِيعَنا
تَـــبْرأُ مِـــنْ عُـــرْسٍ بهـــا دائـــبِ

فلـــــيس بـــــاللائقِ فى مـــــأتمٍ
تَسَـــمُّعُ العـــازفِ والقاصـــبِ

فهـــاتِ مجـــدافيكَ يـــا قـــاربى
ولنبـــدأ الهجـــرةَ يـــا صـــاحبى

أمامَنـــا البحـــرُ، فهيّـــا بنـــا
نجـــوبُ مـــا عـــزَّ علـــى الجائـــبِ

ودِّعْ مُحِبّيـــــكَ؛ فقـــــد ينجلـــــى
هَـــبُّ الصَّبَا عـــن صَرْصرٍ حاصـــبِ

ولا يَهُولنّـــــكَ ذِكْـــــرُ الـــــرّدَى؛
فغايـــــةُ الهـــــاربِ كالحـــــارِبِ

ودِّعْ محبيـــــكَ؛ فقـــــد ينجلـــــى
قطْـــرُ النّـــدَى عـــن عـــارمٍ راعِـــبِ

ودَعْ رُباعيّـــــــاتِ مُسْـــــــتبتلٍ
لعاشـــقٍ، أو عابـــدٍ راهـــبِ

أو ساهرٍ للصبح دارتْ بهِ
دنادِنٌ كالشارِعِ الصاخبِ

وفارِق الحيْرَى وخَيّامَهمْ؛
ملِلْتُ مِن ريْبٍ ومن رائبِ

ولا تَهُمَّنْكَ ضلالاتُه،
فالأمرُ للمُكسبِ لا الكاسبِ

أعَيْشُنا طيفُ خيالٍ؟! إذَنْ
فما له كالحَسَكِ الناشبِ

أمْ هو فى رأْى عَمٍ قصّةٌ
يقصُّها ذو خَلَدٍ عازِبِ

إذَنْ، فما الفرقُ – تُرَى – بيننا
وبين سِرْبِ البَهَمِ السارِبِ

لم يَعْنِ مَحْياها وحوشَ الفَلا،
ولا تَرَدِّيها إلى تارِبِ

لكنْ قَضَى ربُّ بنى آدمٍ
للطِّفْلِ أنْ يسأَلَ: لِمْ يا أبى؟!

ويُجْفِلَ الداخلُ فى آشبٍ،
ويصنعَ السالِفُ للعاقِبِ

ولو تطلَّعْتَ إلى شارقٍ
تساءلَتْ روحُكَ عن غاربِ

وعن سماواتٍ، وعن بَرْقِها،
ورَعْدِها، وصَوْبها الصائبِ
فلا تُوَهِّنكَ ضلالاتُه،
فالأمْرُ للمكسبِ لا الكاسبِ
ولستُ عن أنْ أتغَنّى كما
غَنَّى خلِيُّ البالِ بالراغبِ:
ما أَضْيَعَ اليومَ الذى مَرَّ بى
وليس لَيْلاَىَ إلى جانبى
لكنها تشكو كما أشتكى،
وكلُّ ما يَحْزُبُها حازِبى
رُضَابُها شَهْدٌ، ولو ضامَها
وَغْدٌ، فسُمٌّ فى فمِ الراضِبِ
أمامَنا البحرُ، فهيّا بنا
نجوبُ ما عَزَّ على الجائبِ
وراءَ ليلاكَ، وكلِّ المَهَا
عوالمٌ كشَّفَ عنها رَبِى
واستصحِب الراغبَ فى خَيْرنا،
لا تعتمدْ إلّا على راغبِ
واحذَرْ، وإلّا مِلْتَ عن لازبٍ –
وأنتَ لا تدْرى – إلى لازِبِ

ولا تَقُـلْ لى شِـخْتَ؛ كـمْ مِـن فَـتًى
عـن مُرْتقـى أشـياخِه ناكـبِ

وإنْ تَفَشَّـى الشـيبُ فى مَفْرِقـى،
فمـا فَشَـا فى نَظَـرٍ ثاقِـبِ

امـضِ إلى حيـثُ أَرَى قـاربى؛
مـا تُـرِكَ الحبـلُ علـى الغـاربِ



من وحي الوافر

نُشرت هذه القصيدة مِن قبل فى مجلة "الثقافة" ومعها الكلمة الآتية:

"لهذه القصيدة قصة صغيرة أرى ذكرها مفيدًا لتاريخ الأدب. منذ أربعة أعوام نُشرت لى كلمة فى الصفحة الأدبية للأخبار عنوانها "محمود حسن إسماعيل يكتب الشعر الحر، لماذا؟ "كانت محاولةً لتجديد مناقشة المسألة، واستطلاع رأى الرجل الذى ظل أكثر من عشرين سنة عازفًا عن هذا الضرب من الكلام. كُتبتْ فى هدوء شديد، لكنى فوجئت بغضب من الأستاذ شديد، تمثل فى شيئين: أنه كتب ردّا قصيرًا فى الصفحة نفسها أبان عن بعض انفعاله. ثم كتب

فى مجلة "المجلة" مبينًا عن سائره قصيدة "الوهَج والدِّيدان". لم يَذكرنى فيها صراحةً. لكنه صبّ نقمته علىَّ عبْر إزرائه بمن سماهم الدّيدان، أى الحريصين على التراث، وإشادته بمن سماهم النسور، يعنى أصحاب الشعر الحر. ثم نشرها فى أحد دواوينه دون إشارة إلى المناسبة. ولَمّا كان فى القصيدة معنى عام يتجاوز الانفعال الذى حركها وجدتنى أنظم ردًّا تجاوز الانفعال الذى حركه إلى معنى عام، هو هذه القصيدة التى جاد بها "الوافر"، البحر الرابع من بحور الشعر. لم تكن أولَ أمرها على هذا النحو، فقد دخلها فيما بعد شىء كثير من التنقِيح والزيادة. لكنها عَرَضت منذ أول أمرها لانتقاد مراكز القوى فى ذلك الحين، ولهذا كان لابد أن تطوى. وبقيت مطويةً حتى حدث شىء فوجدتنى أردد أبياتًا منها، كأنها جاءت تسلينى. وهنا أدرك شهرزادَ الظلامُ فسكتت عن الكلام الحرام."

رغِبـتُ عـن الهُـراءِ فيـا جليسـي
تَفَطّـنْ، لسـتُ أسمـعُ مـا تقـولُ

ويـا همِّـي سيُمضـيكَ اعتـزالٌ
وليـلٌ لا يُقـالُ لَـهُ: طويـلُ

ونَظْمُـكَ كُلما عَـدَت العَـوادي
قريضًـا لا يُدَاخِلُـهُ فضـولُ

بـه أَنَـفٌ مِـن المكـرورِ، فـاقْنعْ
بِصُـحْبَتِهِ، فـذاك هـو الخليـلُ

يُحَـدِّثُ فيَّ قبـل السـمعِ رُوحـي
وإن يُطْنِـبْ فَإطْنَـابٌ جميـلُ

ويَعْـرِفُ حـاجتي للصـمتِ إمّـا
كفـاني مـا سمعـتُ فـلا يطيـلُ

إذا حلَّـتْ بحيـثُ قضَـى مُـرادي
قَوَافِيـهِ تَطَـرَّبَنِي الحلـولُ

كـأَنِّي شَـارِبٌ ثَمِـلٌ سَـقَتْهُ
عيـونٌ غَازَلَتْـهُ، أو شَمُـولُ

كـأنِّي زارَ صـحرائي حفيـفٌ
فـأنواعُ الحريـرِ بهـا تجـولُ

أُلامِــسُ لا يَــرُدُّ هــوايَ خــوفٌ
ولا سَــــــأَمٌ، ولا دَلٌّ مَطُــــــولُ

فَشَــعْرٌ دَاعَبَتْــهُ يَــدِي طليــقٌ
وآخَــرُ دَاعَبَتْــهُ يــدي جَــدِيلُ

وخَــدٌّ لَــذَّهُ مــدحي، وخــدٌّ
وَدِدتُ لَــوَ انَّــهُ أبــدًا أَسِــيلُ

وعِطْــرٌ غــضَّ نَفْحَتَــهُ حيــاءٌ
وعطـــــرٌ لا يُبَاليــــهِ جَزيــــلُ

كــــأنِّي قائـــدٌ لَبَّـــاهُ مَجْـــرٌ
لَــــهُ كـــرٌّ وفـــرٌّ، لا فُلـــولُ

* * *

مُفـــاعَلَتنْ مُفــــاعَلَتنْ فَعـــولُ
وكَــمْ رَكَضَــتْ لنــا يومًــا خُيــولُ

أَعَـــانَتْهُنَّ حِكمتُنـــا قـــديمًا
وهــا هــيَ ذِي إلى سَــفَهٍ، تَئُــولُ

فَواأسَـــــفا لإلهــــامٍ يُــــوَلّى
وواأســـــفا لســــلطانٍ يَـــدُولُ

وليسَ يَسُودُ مَن يُعْيِيهِ وزْنٌ
وقافيةٌ تُجَاوِبُهُ عقُولُ

مُفاعلتنْ مُفاعلتنْ فَعُولُ
أهذا الوقعُ يُدْرِكُهُ الأُفولُ

أَجِيبِي عن سَليلِكِ يا قُرونًا
تَوَالَى وهْوَ زاهٍ لا يَحُولُ

أَجِبْهُمْ يا ابْنَ كُلْثومٍ، ولكنْ
تَرَفَّقْ، ربما أَصْغى قَبيلُ

فإنْ صَمُّوا فلا تأسفْ عليهم
سَيَنْجُمُ بَعْدَ هذا الجيلِ جيلُ

يَحِنُّ لِخَفْقَةٍ طُرِحتْ، ويأْسَى
لقافلةٍ تَخَوَّنَها الدليلُ

عَلَى أنِّي لهمْ وإن استبدُّوا
بمرْصادٍ، وإنْ عَزّ المُقِيلُ

ويَحْكُمُ بَيْنَنا يا عمرُو رأيٌ
صقيلٌ، لا القناةُ ولا الصّقيلُ

وشِعْرٌ ليس يَعْنِيهِ إذا ما
سَما الإيقاعُ رفْضٌ أو قَبولُ

سَتُبْحِرُ حيثُ لا سُفُنٌ سَفِيني
يَشُقُّ الحُجْبَ بِي فِكْرٌ رَحولُ

وتنقادُ الشّواردُ لي، وإلّا
فَجَالِبُهُنَّ لي شَرَكٌ خَتُولُ

إذا قــالوا: حِبــالٌ، جَمْــعَ حَبْــلٍ
أقـــولُ ولا أُبَالِـــيهِمْ: حُبـــولُ[1]

فمـا هَـدَلَ الحَمـامُ لأَجْـلِ مُصْـغٍ
يـــروقُ بِسَـــمْعِهِ ذاك الهـــديلُ

أَنِـــدٌّ فلـــيس مَبْـــذولي بـــزادٍ
وغايـــةُ رِحْلَـــتي أَجَـــمٌ وغِيـــلُ

* * *

مُفـــاعَلَتُنْ مُفـــاعلتنْ فَعُـــولٌ
وأمســـتْ لُعْبـــتي هَـــذِي الغُلـــولُ

سَــلَوْتُ وكــلُّ هَــمٍّ دُونَ همّــي
وأَصْـــلٌ في خَلاَئِقِـــيَ الخُفـــولُ

أقــولُ إذا ادْلَهَــمَّ الأفْــقُ: هَوْنًــا
فكـــلُّ النَّسْـــجِ مُبْرَمُـــهُ سَـــحِيلُ

وكـــلُّ قصـــائِد الشـــعراءِ يومًـــا
ســـيَفْنى القائلُوهـــا والـــمَقُولُ

فيـــا عَـــدَمًا كـــأني مُرْتَئِيـــهِ
عِيانًـــا، لـــنْ يُـــرَوّعَني الرحيـــلُ

(1) بعضُ الناس يُنشد البيت برفع هذه الكلمة، والصواب ما أثبت. والمعنى "إذا قالوا حبالٌ – عنيتُ جمعَ حبل – فتأمّلْ.

ولــيس بِسَـــالِبِي حَقًّـــا تُـــرابٌ
تســـــاوَى في غَيَابَتِـــــهِ النُّـــــزُولُ

جَــزَانِي أنَّ أَصْــفَى مــا خُلِقْنــا
لِرُؤْيَتِـــــهِ أَرَانِيـــــهِ الشُّـــــمولُ

وهَــوَّنَ مِــن صِــيالِ الغَــيِّ عِنـدي
يَقِيـــــنِي أنَّ مُرْشِـــــدَنا ضَـــــلُولُ

وواعظُنـــا الـــذي مـــا جَـــدَّ إلّا
لِــيَطْعَمَ، أَوْ لِــيُطْعِمَ مَــنْ يَعُــولُ

وإيمـــــانٌ تُوَهِّنـــــهُ ظُنُـــــونٌ
وبعـــضُ الظـــنّ قتّـــالٌ قَتُـــولُ

وأوهـــامٌ نُسَـــمّيها حُلـــولًا
وعنــدَ علــيمٍ مــا خَفِــيَ الحُلــولُ

وطَـرْفٌ غَـاضَ فِيـهِ كـلُّ حُسْـنٍ
وطــرْفٌ أَحْــورٌ، دَعِــجٌ، كحيــلُ

وأنثَـــى في قـــرارةِ كُـــلِّ أنثَـــى
عنَاهـــا دونَ فَضْـــلِهُمُ الفُحـــولُ

يطيــبُ لهــا العشــيقُ وإنْ عَــدَاها
رضـــاهُ، ولا يطيـــبُ لهـــا الحَليـــلُ

عَرَفْــتُ شــرارةً منهــا اطمأنَّــتْ
فَأَنْشَـــبَ ظُفْـــرَهُ الطَّبْـــعُ الوبيـــلُ

أقــولُ مُعَزِّيًــا صــحْبي، ونَفْســي
رُويـــدًا، إنمـــا الـــدنيا فُصُـــولُ

لنـــا حينًـــا وأحيانًـــا علَيْنـــا
ولـــيسَ الخـــيرُ حـــالًا لا تَحُـــولُ

***

مُفـــاعلتنْ مُفـــاعلتنْ فعُـــولُ
تهـــبُّ الـــريحُ لكـــنّي حَمُـــولُ

وكَـــمْ سَـــكَنَ احتـــدامي ثُمّ أَوْرَى
وأَخْلَـفَ مـا ظَنَنْـتُ بـه الفَتِيـلُ

فهـاتِي مـا بـدا لـكِ يـا عَـوَاتِي
فمـا ضَـرِيَتْ بـلا بـأسٍ شُـبُولُ

تعـاظَمَ شِـرَّةَ الأشـرارِ غَـيْري
وجَـلَّ علـى سِـوى الحُـرِّ الجليـلُ

وأَحْكَـمَ مِـرَّتي، وأَقَـلَّ لَهْـوِي
طُمُـوحٌ لا يكُـفُّ لـه غَليـلُ

وتصـريفُ الكـلامِ يَـدِقُّ حـتّى
يقـولَ العُجْـبُ لـيس لـهُ مثيـلُ

***

إلىَّ إلىَّ فـــاعِلتنْ فعـــولُ
تمكّـنَ في الحَشـا الـداءُ الـدَّخيلُ

إذا مـازالَ شـوقٌ بَعْـدَ لَأْيٍ
أزالَ زَوالَـهُ شـوقٌ سـليلُ

أَعَيْناهــــا، أَخَــــدَّاها، أفُوهــــا
أَنَهْــــداها، أم الخَصْـــرُ النّحيــــلُ

تَنَـــــزَّهَ بُرْهـــــةً فيهـــا خَيـــالي
لِيُنكـــرَ فِعْلَـــهُ خُلُـــقٌ عَـــذُولُ

لِأُلْفِيَـــنِي، وإنْ صَـــحَّ اعتزامـــي
تَنــــازَعَنِي التَّنــــائِي والقُفُـــولُ

إلى حـــينٍ، أُجَمِّـــعُ فيـــه لُبًّـــا
شـــتيتًا، ثُم تَتَّحـــدُ الســـبيلُ

ولكـــنِّي، علـــى بَصَـــرِي وخُـــبْرِي
أرجِّـــي دائمًـــا مَـــنْ تســـتميلُ

كـــأنَّ تلهُّـــبي مـــا كـــان يومًـــا
وماضِـــيَ حُـــرْقتي ظِـــلٌّ ظليـــلُ

سـأَهْوَى مـا حَيِيـتُ، نقيـعُ سُـمٍّ
شَـــرَابي المـــرْتجَى أو سَلْســـبيلُ

مُفــــاعَلَتُنْ مُفــــاعلتنْ فعـــولُ
تحامَــــلْ أيُّهــــا الحــــادِي النبيــــلُ

ولا يَكْرُبْـكَ أنَّـكَ صِـرْتَ فـردًا
وأنَّ كتائـــبَ الـــمَوْتَى تصـــولُ

وأنْ دَانُــوا بمــا تأبــاهُ دينًــا
وأنْ نَعِمَـــتْ بِحِطَّتِهـــا العُقـــولُ

وطغيـانُ الهـوَى فى النـاسِ حـتى
كأنَّـــا عـــافَ نِسْـــبَتَنا العُـــدولُ

إذا يُمْنــــاكَ راميـــــةً أجـــادتْ
فقَـــرَّتْ في مراميهــــا النُّصُـــولُ

تَــرَنَّمْ، وَحْشــتي طالــتْ، وقَــوْمي
دمـــاءٌ لـــيس يُوقِظُهـــا المــَسِيلُ

أســاءَ كَثــيرُهُمْ، ويكــاد يَحْكِــي
كثـــيرَ مَسَـــاءَةٍ حَسَـــنٌ قليـــلُ

تـــرنّمْ رُبمـــا يَنْـــأَى تـــرابٌ
أُهِيـــلَ ويَأْسُـــنا الـــداني الــمُهِيلُ

ونـــاهِضْ في عزائمِنـــا انحـــلالًا
لـــهُ في طُـــورِ سَـــيْناءٍ صَـــليلُ

وعَلِّمْنـــــا مُصـــــابرةَ البَلَايـــــا
وأنَّ البَـــدْءَ فَرْحَتُـــهُ الوُصـــولُ

وكَيْـفَ الهَـوْلُ يُصْـبحُ أنْ سَـهِرْنا
لِلُقْيــــاهُ ســــنينًا لا يَهُـــولُ

وأَنَّ ســـلاحَنا بِيَـــدِ الأعـــادِي
إذا يُعْطـــاهُ وِجْـــدانٌ هزيـــلُ

فَعَلِّمْنـــــا وعَلِّمْنـــــا وعَلِّـــــمْ
وإنْ نَكِرَتْـــكَ أَدْمِغَـــةٌ فُسُـــولُ

دَعَـــاكَ إلى مُتابَعَـــةِ الأُسَـــارى
فـــلا تَسْـــمعْ لـــه زمـــنٌ عَقِيـــلُ

يُرَجِّـــى مُوثَقُـــوهُ أنْ يَنـــالُوا
وخِـــزْيٌ في العواقـــبِ مـــا يُـــنِيلُ

لَهُمْ صَخَبٌ أرادوهُ وِقاءً
فهَلْ تُنْجِي ضَمائِرَهُمْ سُدُولُ

تَخَلَّوْا حين شَقَّ سِوى التّخلِّي
وهانَ فلَمْ يُعَادُوهُ السُّفولُ

وكَمْ قالوا: تحَرَّرْنا فرَدَّتْ
جِبالُهُمُ تشكّي والسُّهولُ

فَيَا حُرِّيَّةً كَسْلَى تَوَارَيْ
أَذَانا لَنْ يُطيحَ بِهِ كَسُولُ

تبَرَّأت الرجولةُ مِن رجالٍ
قُصارَى دَفْعِهِمْ قالٌ وقِيلُ

إلامَ تُجَوِّزُ الأبواقُ ما لَمْ
يُجِزْ إلّا غبِيٌّ أو عميلُ

لَئِن لمْ يَنْفِ طبْلَهُمُ نُفاةٌ
لَنافِيَةٌ مَكَارِمَنا الطُّبولُ

هُمُ؟ كَلّا تواضَعْ يا فؤادي
فإنّكَ بين قتلاهُمْ قتيلُ

صَغُرْنا كُلُّنا لَمَّا رُمينا
فَسِيَّانِ الّتَرفُّعُ والنُّزولُ

فلا يَغْرُرْكَ أنَّكَ كُنتَ أَدْرَى
فلَمْ يَغْرُرْكَ مِن زَيْفٍ شُكولُ

ولا يُعْجِبْكَ إشرافٌ عليهم
ومَنْظَرُكَ الخرائبُ والوُحولُ

كأنَّكَ لستَ مِنهُمْ، أنتَ مِنْهُمْ ... وتَشْــهَدُ حَسْــرةٌ بــكَ لا تــزولُ

بــلادِي، إنَّ في دمِنــا صَــوَابًا ... طَــوَاهُ الحِــرْصُ والنظــرُ الكليــلُ

يدُلُّ عليه –كـان يدلُّ – أَمْسٌ ... فكَيْــفَ يُجِــدُّ هيئتَــهُ الــدليلُ

وكيـفَ يعـودُ في الأعـراقِ يَسْـرِي ... إبــاءٌ طالمــا قُلنــا: أصــيلُ

لِنكــرَهَ أنْ يقــولَ العَجْــزُ فينــا ... ونحــنُ نمــوتُ موتًــا، مــا البــديلُ

* * *

مُفــاعلتنْ مُفــاعلتنْ فعــولُ ... تواصَــلْ أيهــا الغيــثُ الهَطُــولُ

سُــيولًا تَجْـرِفُ الأفيـونَ يَنْمُــو ... علــى وَرَقٍ، تُوافيهــا سُــيُولُ

أعــانَ المسـتبيحَ علـى التّمــادِي ... صــديقاه: المنــافقُ والجهــولُ

وأشــعارٌ لِنَــوَّاحِين تَبْكِــي ... كــأنَّ الــدَّمْعَ بــالبَلْوَى كفيــلُ

وزَعَّــامونَ مــا بَــرِحَ ادِّعــاءٌ ... لَــهُمْ تِلْــوَ ادِّعــاءٍ يســتطيلُ

وهَــذْرُ الهــاذرينَ علــى أصــولٍ
وهـــذرُ الهـــاذرينَ ولا أُصـــولُ

أَيَهْزِمُنـــا البنـــاءُ علـــى فســـادٍ
فَيُـــتَّهَمَ "الكســـائِي" و"الخَليـــلُ"

أحـاطَ بنا المغُولُ، أَجَلْ، ولَكِـنْ
خِـــلالَ ديارِنـــا يَسْـــعَى مَغُـــولُ

فهَـــلْ مِـــنْ صـــحوةٍ، إنّ الرزايـــا
طَغَـتْ في فَتْكِها، وطَغَـى الـذُّهولُ

* * *

مُفـــاعلتنْ، تَغَـــنَّ، وقُـــلْ تَغَنَّـــوْا
فمـــا اجتمـــعَ التَّغَـــنِّي و الـــذُّبُولُ

جِبَـاهَكُمُ، فمـا أَجْـدَى الحـزانَى،
وَجِعْـــتُمْ أو تَـــواجَعْتُمْ، عَويـــلُ

كَـــذَبْتُمْ كُلُّكُـــمْ، وإِخَـــالُ أنِّي
علـى صِـدْقٍ شَقِيتُ بِـهِ - زَميـلُ

لِأَعْـيُنِ مَـنْ سَمَـتْ وصَفَتْ سماءٌ
وأَحْسَـــنَ نَشْـــرَ صُـــفْرَتِهِ أَصـــيلُ؟

وشَـــقّ الأرضَ مـــاءٌ تِلْـــوَ مـــاءٍ
وأَيْنَـــعَ فـــوْقَ شـــاطئِهِ خَميـــلُ

لِأعْـــينِ مَـــنْ تَزَيَّنَـــت المغـــانِي؟
لِأَعْـــينِ مَـــن تَطاوَلَـــت النخيـــلُ؟

لِأعْــينِ مَــنْ تجـرَّأت العَــذَارَى
وفـــارقَهُنَّ إغْضــــاءٌ خَجـــولُ؟
لَنــا، ولِغَيْرنـــا – إنْ لَمْ نَصُــنْها
ولـــــيس بجـــائرٍ إلا الـــــذّليلُ
وكَـــــمْ مُلْـــكٍ أَدَالَ اللّهُ مِنْـــهُ
وإغمــاضُ العيــونِ هــو الــمُدِيلُ
ودُنْيـــا فَــضَّ حُرْمَتَهــا غُـــزاةٌ
فمـا اختلفَـتْ أَنْ اخْتَلَـفَ البُعـولُ
فصُـــونوها وصُـــونوها وصُـــونوا
فمـــا تَـــدْرِي الرُّبــوعُ مَــن النَّزيــلُ
ومـــا يَـــدْرِي بِخُضْـــرَتهِ ثَرَانـــا
فيُجْــــدِبَ أَنْ تَمَلَّكَــــهُ دَخيــــلُ

* * *

مُفـــاعَلَتُنْ مُفـــاعلتنْ فعـــولُ
ومَـــلَّ مُقَامَنـــا الـــمَجْدُ الأَثيـــلُ
لِغَـــيْرِ اللهِ صَـــلَّى العُـــرْبُ طُـــرًّا
وسَـــبَّحت المصــــانعُ والحقـــولُ
ولَيْـــتَ المـــالَ عَــزَّ فلَــمْ تُسِــلْهُ
خــــزائنُ في مَهَانَتِنـــا تَســـيلُ
دَنَــا، فليَحْــذَر الحمقَــى، قضــاءٌ
إذا عَجِلَـــتْ حَمَـــاقَتُهُمْ عَجُـــولُ

فيـــا أَرْبَابَنـــا، يـــا مُتْرَفينـــا
ستَسْــجُدُ في غــدٍ لكــمُ الطُّلــولُ

ويَبْقَــى عــارُ غفلتِنــا عِبَــادًا
وآلهـــةً، إذا لَـــجَّ الغُفـــولُ

* * *

إليَّ إليَّ فـــــاعلتُنْ فَعُـــــولُ
زَمـــانُهُمُ بأنـــدادِي بخيـــلُ

أَمُعْتَـــزَلِي رَجَعْـــتُ إليـــكَ إنِّي
عليـــلٌ لـــيس يُشْـــبِهُهُ عليـــلُ

يظنُّـــون المـــلالَةَ فيَّ طبْعًـــا
ولكـــنّي غريـــبٌ لا مَلُـــولُ

ولِي أَرَبٌ، ولكـــنَّ الليـــالِي–
لِأنَّ القَهْـــرَ أَفْســـدَها – تَحُـــولُ

إذا خَنَـعَ الرجــالُ فَعَــدِّ عَـنْهُمْ
فــأَهْونُ مــا طَلَبْــتَ الــمُسْتحيلُ

ومـا نَـأْيَ النُّكُـولِ نَأَيْـتُ، لَكِـنْ
لأنَّ رضــا الهــوانِ هــو النُّكــولُ

فـإنْ تَـكُ شـاءت الأيـامُ دَحْـرِي
فلَـــنْ يُمْضِـــي مَشِـــيئَتَها النُّـــذُولُ

ولا الأغــرارُ طَمَّعهـــمْ نُحُــولي
ولَـــوْ يَـــدْرونَ راعَهُـــم النُّحـــولُ

ولا بَشَـــمُ الثعالـــبِ لَمْ تَـــذُدْها
نـــــواطيرٌ وعُنقــــودي ضـــــئيلُ

ولا أنِّي أَضِــــــيقُ بـــــأَنْ أُدَارِي
مشـــاهيرًا يحِـــقُّ لهـــا الخُمُـــولُ

ولكـــنْ أَنْ تُسَـــاقَ إلى رَدَاهـــا
أُلـــوفُ أُلوفِنـــا وهِـــيَ الـــذَّلولُ



الفهرست

.

الصفحة